أنطونيو تابوكي



رواية

ترجمة: روز مخلوف





بيريرا يدّعي

* أنطونيو تابوكي
* بيريرا يدّعي
* ترجمة روز مخلوف

* الطبعة الأولى 1997
* الناشر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053 ص. ب: 9436
* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* لـوحـــة الـغـلاف : د. أحمد معلّا
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص. ب: 9436

أنطونيو تابوكي

بيريرا يدّعي

رواية

ترجمة روز مخلوف

عنوان الكتاب الأصلي:

Pereira Pretend

مقدمة للطبعة الإيطالية العاشرة

زارني دوتّور بيريرا لأول مرة في مساء أحد أيام شهر أيلول عام 1992 . لم يكن في ذلك الوقت يدعى بيريرا بعد، لم تكن ملامحه محددة جيداً. كان غامضاً، بعيداً، وغائماً، لكنه كان يريد أن يكون بطل كتاب. كان ببساطة، شخصية تبحث عن مؤلف. لا أعلم لماذا اختارتني هذه الشخصية أنا بالذات لكي تُكتب. إحدى الفرضيات الممكنة هي أنني، في الشهر الماضي، وفي يوم شديد الحرارة من أيام شهر آب في لشبونة، قمت أنا أيضاً بزيارة. أذكر ذلك اليوم بوضوح كبير. اشتريت جريدة لوماتان، اليومية التي تصدر في المدينة، وقرأت خبراً يعلن أن صحفياً قد مات في مستشفى سانتا ماريا في لشبونة، وأنه يمكن رؤية جثمانه على سبيل الوداع الأخير في كنيسة المستشفى المذكور. لا أريد، حفاظاً على السرية، الإفصاح عن اسم هذا الشخص. سأقول فقط إنه كان شخصاً عرفته معرفة موجزة في باريس، في نهاية الستينات، حين كان يكتب في صحيفة باريسية بصفته لاجئاً برتغالياً. مارس مهنته الصحفية في الأربعينات والخمسينات في البرتغال في ظل دكتاتورية سالازار. ونجح في توجيه صفعة للدكتاتورية السالازارية، بنشره مقالاً

نشر أنطونيو تابوكي هذا النص في البداية، في صحيفة غازيتينو، في أيلول عام 1994 .

ضارياً ضد النظام في صحيفة برتغالية. بعدها تعرض بالطبع لمتاعب جدية مع البوليس، واضطر أن يختار طريق المنفى. كنت أعلم أنه بعد أحداث عام أربع وسبعين، حين استعادت البرتغال الديمقراطية، عاد إلى بلده، لكني لم ألتقِ به بعد ذلك. كف عن الكتابة وأحيل على التقاعد، لاأعلم كيف كان يعيش، لقد تم مع الأسف، نسيانه. كانت البرتغال في ذلك الوقت، تعيش الحياة المضطربة والعصبية لبلد يستعيد الديموقراطية بعد خمسين عاماً من الدكتاتورية. كان بلداً شاباً، يقوده أناس شبان. ولم يعد أحد يذكر أبداً، صحفياً عجوزاً، وقف، في نهاية الأربعينات، بحزم ضد الدكتاتورية السالازارية.

ذهبت لزيارة الجثمان في الثانية بعد الظهر. كانت كنيسة المستشفى خالية والتابوت مفتوحاً. كان ذلك السيد كاثوليكياً ووضعوا له مسيحاً من الخشب فوق صدره. بقيت بجواره حوالى عشر دقائق. كان رجلاً مسناً ومتين البنية، بل كان أيضاً سميناً. حين عرفته في باريس، كان رجلاً في الخمسينات من عمره، يقظاً ورشيقاً. جعلته الشيخوخة، وربما أيضاً، الحياة الصعبة، عجوزاً سميناً ورخواً. عند أسفل التابوت، وفوق مقعد صغير، كان هناك سجل مفتوح حمل توقيعات الزائرين. سجلت بعض الأسماء، لكني لم أعرف أحداً. ربما كان هؤلاء هم زملاءه القدامى، ممن عاشوا نفس المعارك إلى جواره، من الصحفيين المتقاعدين.

في أيلول، كما قلت، زارني بيريرا بدوره. لم أعرف في الحال ماذا أقول له، ولكني فهمت مع ذلك، بشكل غائم، أن هذا الظهور الضبابي على شكل شخصية أدبية، كان رمزاً واستعارة: كان بشكل من الأشكال، البديل الاستيهامي للصحفي العجوز، الذي ذهبت أودعه الوداع الأخير. شعرت بالحرج، لكني استقبلته بحرارة. أدركت في ذلك المساء من أيلول، بشكل غائم، أن روحاً مسافرة في الهواء، كانت تحتاج لي لكي تُروى، لكي يُحكى عن خيارها، عن عذابها،

وعن حياتها. في هذه الفسحة المميزة التي تسبق لحظة النوم، والتي هي بالنسبة لي، اللحظة الأنسب لاستقبال شخصيات أعمالي، طلبت منه أن يكرر زياراته، أن يبوح لي بما في نفسه، وأن يحكي لي قصته. عاد وفي الحال وجدت له اسماً: بيريرا. وسبب التسمية أدبي في أصله، يعود إلى نص لـِ إليوت بعنوان what about Pereira? يتحدث فيه صديقان خلال حوارهما، عن شخص برتغالي غريب يدعى بيريرا، لايُعرف عنه شيء أبداً. في الوقت الذي بدأت فيه أعرف عن بيريرا، خاصتي، أشياء كثيرة. كان في زياراته الليلية يحكي لي أنه أرمل، مريض بالقلب، وبائس، وأنه يحب الأدب الفرنسي، خاصةً، كتّاب مابين الحربين الكاثوليك، مثل مورياك وبرنانوس، وأن فكرة الموت كانت هاجساً لديه، أن أفضل صديق له أب فرنسيسكاني يدعى الأب أنطونيو. كان يعترف له بخشيةٍ، بعدم إيمانه بقيامة الجسد. بعد ذلك، اتحدت اعترافات بيريرا مع خيال كاتب هذه السطور، اتحاداً تكفّل بالباقي. عثرت لـ بيريرا على شهر مصيري من حياته، شهر لاهب هو شهر آب من عام 1938 . كنت أفكر بأوروبا على مشارف كارثة الحرب العالمية الثانية، وأثناء الحرب الأهلية الأسبانية، أفكر بمآسي ماضينا القريب. وفي صيف ثلاثة وتسعين، حين أصبح بيريرا صديقاً عزيزاً لي، وكان قد روى لي قصة حياته، استطعت أن أبدأ بكتابة هذه القصة. كتبتها في فيتشيانو، خلال شهرين، كانا أيضاً لاهبين، من العمل المكثف والغاضب. وبمصادفة سعيدة، أنهيت كتابة الصفحة الأخيرة في يوم 25 آب 1993. وأردت أن أسجل ذلك التاريخ على الصفحة، لأنه مهم بالنسبة لي: إنه عيد ميلاد ابنتي. بدا لي ذلك بمثابة مؤشر، وفأل خير. اليوم السعيد الذي ولد فيه أحد أطفالي، ولدت فيه أيضاً بفعل قوة الكتابة قصة إنسان. ربما كان لكل هذا مغزى، في الحبكة التي يتعذر سبرها، للأحداث التي تخبئها لنا الآلهة.

أنطونيو تابوكي

1

ادّعى بيريرا أنه تعرف عليه في يوم من أيام الصيف. كان يوماً صيفياً رائعاً، مشمساً، هواؤه نشيط، وكانت لشبونة تتلألأ. يبدو أن بيريرا كان آنذاك في مكتب التحرير، لم يكن يعلم ماالذي عليه أن يفعله، فالمدير في إجازة، وكان همُّه واجب إعداد الصفحة الثقافية، لأن صحيفة *لِشبُوَا* صارت من الآن فصاعداً تتضمن صفحة ثقافية، حمّلوه مسؤوليتها. وكان بيريرا، يفكر بالموت. في ذلك اليوم الصيفي الجميل، ومع النسيم الأطلسي الذي يداعب قمم الأشجار، مع شمس تسطع، ومدينة تتألق، نعم هكذا حرفياً، تتألق تحت نافذته، وسماء زرقاء، زرقةٌ لم يُرَ مثلها، ادّعى بيريرا، أنها كانت زرقةً واضحة وضوحاً يكاد يؤلم العين، راح يفكر بالموت. لماذا؟ هذا ما لن يعرفه بيريرا. ربما لأنه في طفولته، كان لدى والده وكالة تقيم مواكب الدفن، وتحمل اسم *بيريرا لادولوروز*، أو ربما لأن زوجته توفيت بمرض السل الرئوي منذ بضع سنين مضت، أو أيضاً لأنه سمين، يشكو من علة في قلبه، وضغط شرياني عالٍ جداً، وأن الطبيب قال له إنه إن استمر هكذا فلن يبقَ حياً زمناً طويلاً. الذي حدث هو أن بيريرا راح يفكر بالموت، كما ادّعى. وبالمصادفة، بمحض المصادفة، أخذ يتصفح مجلة. إنها مجلة أدبية، مع ذلك، فهي تتضمن قسماً للفلسفة. ربما كانت مجلة طليعية، لم يكن بيريرا متأكداً من

ذلك، إلا أن كثيراً من محرريها كانوا من الكاثوليك. وكان بيريرا كاثوليكياً، أو على الأقل كان يحس في تلك اللحظة أنه كاثوليكي، كاثوليكي صالح، رغم أن هناك شيئاً لم يكن يستطيع الإيمان به: قيامة الجسد. الروح نعم، بالتأكيد، لأنه كان واثقاً أن لديه روحاً؛ أما الجسد، كل هذا اللحم الذي يحيط بروحه، لا! هذا شيء لن يُبعث، ولأي سبب يُبعث؟ تساءل بيريرا. كل هذا الدهن الذي يرافقه يومياً، والعرق، واللهاث عند صعود الأدراج، لأي سبب يجب أن تُبعث كل هذه الأشياء؟ لا، هذه أمور من النوع الذي لايريده بيريرا أن يكون موجوداً في حياة أخرى، كي يلازمه أبداً، ولا يريد أن يؤمن بقيامة الجسد. هكذا بدأ يقلّب المجلة، بلامبالاة، لأنه كان يشعر بالملل، كما يدّعي، واكتشف مقالاً جاء فيه: «انطلاقاً من بحث ألقي الشهر الماضي في جامعة لشبونة، ننشر تأملات حول الموت. مؤلفها هو فرانسيسكو مونتيرو روسي، الذي نال درجة الأستاذية في الفلسفة بالعلامة القصوى. وليس هذا المقال سوى مقطع من دراسته، التي ربما ننشر صفحات أخرى منها في المستقبل القريب.»

ادّعى بيريرا أنه قرأ المقال الذي لم يكن يحمل عنواناً، وهو شارد، ثم عاد آلياً إلى الوراء ونسخ قطعة منه. لماذا فعل ذلك؟ هذا مالم يكن بيريرا قادراً على معرفته. ربما لأن هذه المجلة الطليعية الكاثوليكية تزعجه، ربما لأنه في ذلك اليوم لم يعد يطيق الطليعية ولا الكاثوليكية، مع أنه كان كاثوليكياً حتى الأعماق، أو ربما لأنه في تلك اللحظة، في تلك الحالة من التألق الذي كانت عليه لشبونة، ومع كل تلك الكتلة التي ترمي بثقلها عليه، كان يكره فكرة قيامة الجسد. المهم أنه راح ينسخ المقال، ربما لكي يتمكن من رمي المجلة في المهملات.

ادّعى أنه لم ينسخه كاملاً، بل نسخ فقط بضعة أسطر منه، هي الأسطر التالية والتي يستطيع أن يقدمها كوثيقة: «إن العلاقة التي

تميز معنى وجودنا بالشكل الأعمق والأكثر عمومية، هي علاقة الحياة بالموت، لأن محدودية وجودنا الناجمة عن الموت هي أمر حاسم من أجل فهم قيمة الحياة.» ثم تناول الدليل السنوي للهاتف، وادّعى أنه طلب رقماً، لأنه يذكر ذلك الرقم جيداً، وأنه سمع في الطرف الآخر للخط صوتاً يقول: ألو. قال بيريرا: ألو، هنا جريدة *لِشبُوَا*. فقال الصوت: نعم؟ أجاب بيريرا ، كما ادّعى ، بأن *لِشبُوَا* هي واحدة من صحف لشبونة، ظهرت منذ بضع شهور، لاأدري إن كنت قد رأيت أعداداً منها، نحن مستقلون لانتعامل مع السياسة، لكننا نؤمن بالروح، أعني أن لدينا ميولاً كاثوليكية، وأريد الكلام مع السيد مونتيرو روسّي. ادّعى بيريرا أن لحظة من الصمت حلت في الطرف الآخر للخط، بعدها قال الصوت إنه مونتيرو شخصياً، وأن الروح ليست شأنه حقاً. التزم بيريرا بدوره بضع ثوان من الصمت، لأنه بدا له غريباً، كما ادّعى، أن شخصاً وضع تأملات بهذا العمق حول الموت، لايفكر بالروح. لذا فكر بأنه ربما كان هناك سوء فهم، وخطرت له في الحال فكرة قيامة الجسد، التي كانت واحدة من أفكاره الثابتة؛ قال إنه قرأ مقال مونتيرو روسي حول الموت، وإنه هو أيضاً، بيريرا، لايؤمن بقيامة الجسد، إن كان هذا هو ماعناه السيد مونتيرو روسي. باختصار، تشوش بيريرا، كما ادّعى، الأمر الذي استثاره ضد نفسه بشكل رئيسي، لأنه وضع نفسه في موقف سيء جعله يتصل بشخص مجهول ويكلمه عن أشياء بهذا القدر من الحساسية، بل الحميمية، كالروح وقيامة الجسد. ندم بيريرا على ذلك، كما ادّعى، وكاد يغلق السماعة، لكنه وجد القوة كي يستمر، دون أن يعرف أحد سبب ذلك، وقال إن اسمه بيريرا، دوتّور[1] بيريرا، إنه يدير الصفحة الثقافية في جريدة *لِشبُوَا*، وأن الـ*لِشبُوَا*،

(1) في البرتغال يستعمل عادةً لقب (دوتّور) أي (دكتور)، للشخص الذي نال درجة الأستاذية. وهي لمسة محلية من البرتغال تركت في الترجمة على حالها بلفظها البرتغالي. لأنها أفضل من كلمة سيد أيضاً.

كانت، طبعاً، تصدر حالياً كجريدة مسائية ، أي أنها بالتأكيد غير قادرة على منافسة صحف العاصمة الأخرى، ولكنه واثق من أنها ستشق طريقها عاجلاً أم آجلاً. صحيح أن *لِشْبُوا* تكرس صفحاتها للأخبار العاطفية، ولكن، هاهم قد قرروا الآن إدراج صفحة ثقافية تصدر يوم السبت، وأسرة التحرير لم تكتمل بعد، ولهذا السبب فهو يحتاج لِطاقم، لِمساهم من الخارج يمكنه أن يتكفل بملء زاوية ثابتة.

ادّعى بيريرا أن المدعو مونتيرو روسي غمغم في الحال قائلاً إنه سيمر إلى مكتب التحرير في اليوم نفسه، وأن العمل يثير اهتمامه، وكل عمل يثير اهتمامه، لأنه، نعم، كان بحاجة للعمل، الآن وقد أنهى المرحلة الجامعية وصار عليه أن يؤمّن عيشه. لكن بيريرا قال له بدافع الحيطة، بأنه لايريده أن يأتي إلى مكتب التحرير في الوقت الحاضر، ويمكنهما اللقاء في الخارج، في المدينة، ويستحسن أن يتفقا على موعد. ادّعى أنه قال هذا لأنه لم يكن يريد دعوة شخص مجهول إلى هذه الغرفة الصغيرة الخضراء المزرقة من شارع رودريغو دا فونسيكا، التي تشخر فيها مروحة مصابة بالربو، والتي تسود فيها دائماً رائحة قَلي سيئة بسبب البوابة، السيدة الشرسة التي تنظر إلى الجميع نظرة الارتياب وتمضي وقتها في صنع المقالي. ثم إنه لم يكن يريد أن يكتشف شخص مجهول أن القسم الثقافي في الـ لسبوّا يتكون منه بمفرده، هو بيريرا، الرجل الذي يتعرق من الحرارة ومن الملل في هذه الغرفة الضيقة. ادّعى بيريرا إذن أنه طلب منه اللقاء في المدينة إن أمكن، وقال له مونتيرو روسي: هذا المساء، في براشا دا آليغريا، هناك حفلة رقص شعبي مع أغانٍ وأناس سيعزفون على الغيتار، دعيت لكي أغني أغنية عاطفية نابوليتانية، فأنا نصف إيطالي، لكني لاأعرف كيف أتكلم على الطريقة النابوليتانية. مهما يكن فإن صاحب

المؤسسة حجز لي طاولة في الخارج، وسيكون هناك بطاقة صغيرة كتب عليها مونتيرو روسي، ما قولك أن نلتقي هناك؟ ادّعى بيريرا أنه قال نعم، ثم أغلق السماعة، مسح عرقه، وخطر له عندها أن ينشئ زاوية مقتضبة صغيرة بعنوان «حدث ذات يوم»، فكر أن ينشرها السبت القادم، بحيث أنه كتب العنوان التالي، بشكل شبه آلي، ربما لأنه كان يفكر بإيطاليا: *منذ عامين اختفى لويجي بيرانديللو*. ثم كتب تحته عنواناً فرعياً «المسرحي الكبير قدّم في لشبونة مسرحيته: *أنا أحلم، ولكن ربما لا أحلم*.»

كان ذلك هو اليوم الخامس والعشرون من تموز، عام ألف وتسعمائة وثمان وثلاثين، وكانت لشبونة تتألق في السماء الزرقاء مع نسيم أطلسي، كما ادّعى بيريرا.

2

ادّعى بيريرا أن الطقس تغير بعد ظهيرة ذلك اليوم. توقف النسيم الأطلسي فجأةً، وتقدمت ستارة ضبابية سميكة من المحيط فوجدت المدينةُ نفسَها مغلَّفةً في كفن من الحرارة. قبل أن يخرج بيريرا من مكتبه، نظرإلى ميزان الحرارة الذي اشتراه على نفقته والذي علقه خلف الباب. كان يشير إلى ثمان وثلاثين درجة. أطفأ بيريرا المروحة، التقى على السلم بالبوابة التي قالت له إلى اللقاء دوتّور بيريرا. شم مرة أخرى رائحة القلي التي تطفو في الفناء. وأخيراً خرج إلى الهواء الطلق. كان سوق الحي يقع أمام باب المدخل وتقف هناك شاحنتان صغيرتان تابعتان للحرس الوطني الجمهوري. كان بيريرا يعلم أن السوق يعيش حالة اضطراب، وذلك لأنه في اليوم الذي سبق، قَتَل رجال الشرطة في ألنتيخو، سائق عربة اشتراكياً، كان واحداً ممن يمدون المكان بالمؤن . لهذا السبب كانت قوات الحرس الوطني الجمهوري تتمركز أمام سور السوق. لكن إدارة *الـ لِشبُوا*، أي نائب المدير، لم تتجرأ أن تنشر الخبر، لأن المدير في إجازة، في بوشاكو، للاستمتاع بالبرودة والمياه المعدنية. على أية حال، من الذي سيجد الشجاعة الكافية كي ينشر خبر اغتيال سائق عربة فوق عربته في ألنتيخو ويقول إن دمه سال فلطّخ ثمار الشمّام المحملة على عربته؟ لاأحد، لأن البلد كان ساكتاً،

ليس بوسعه سوى السكوت، وأثناء ذلك الوقت كان الناس يموتون ورجال الشرطة يتصرفون على هواهم. بدأ بيريرا يتعرق، لأنه فكر ثانيةً بالموت، وقال لنفسه: هذه المدينة تفوح منها رائحة الموت، كل أوروبا تفوح منها رائحة الموت.

مضى إلى مقهى أوركيديا، الذي يقع على بعد خطوتين من ذلك المكان، بعد الملحمة اليهودية، وجلس على طاولة صغيرة في الداخل، فهناك توجد مراوح على الأقل، في حين أن الحرارة في الخارج كانت غير محتملة. طلب شراب الليمون، ذهب إلى المغاسل، غسل يده ووجهه، ثم طلب سيجاراً وجريدة بعد الظهر. أحضر له مانويل، النادل الـ *لِشبَوا* تحديداً. لم يكن قد رأى البروفات في ذلك اليوم، فراح يتصفحها كما لو أنها مجهولة بالنسبة له. كانت الصفحة الأولى تقول: «اليوم أبحر أفخر يخت في العالم من نيويورك.» نظر بيريرا طويلاً إلى العنوان، ثم نظر إلى الصورة. كانت لمجموعة من أشخاص يرتدون قبعات من القش وقمصاناً وهم بصدد فتح زجاجات شمبانيا. ادّعى بيريرا أنه راح يتعرق، وفكر من جديد بقيامة الجسد. فكر: كيف، هل يُبعث جسدي لأجد نفسي مع هؤلاء الناس ذوي القبعات؟ تخيل نفسه فعلاً بين أصحاب اليخت في ميناء ما من الحياة الأخرى الأبدية. وبدت له الأبدية مكاناً لايحتمل، تغطيه طبقة من الحرارة الضبابية، بأُناس يتكلمون الانكليزية ويرفعون أنخاباً وهم يصيحون مندهشين : اوو ! اوو ! طلب بيريرا كأساً آخر من شراب الليمون. تساءل إن كان من الأنسب أن يعود إلى بيته لأخذ حمام بارد، أم يستغل الفرصة للذهاب لرؤية صديقه، دون أنطونيو، الخوري في كنيسة داس مرسيس، الذي استمع إلى اعترافه قبل بضع سنين، حين توفيت زوجته، والذي كان بيريرا يزوره مرة في الشهر. فكر أنه من الأفضل أن يذهب إلى دون أنطونيو، فربما كان ذلك سيساعده.

هذا مافعله. ادّعى بيريرا أنه نسي تسديد حسابه هذه المرة. نهض بطلاقة، أو بالأحرى نهض دونِ أن يفكر بالأمر، وذهب ببساطة، تاركاً جريدته وقبعته على الطاولة، ربما لأنه لم يكن يرغب أن يضعهاعلى رأسه، بوجود هذه الحرارة، أو لأن من عادته نسيان الأشياء.

ادّعى بيريرا أن الأب أنطونيو كان منهاراً. يحيط بعينيه ازرقاقٌ يصل إلى خديه، ويبدو عليه الإنهاك، مثل شخصٍ لم ينم. سأله بيريرا مابه، فقال له الأب أنطونيو: كيف؟ ألا تعلم؟ لقد اغتالوا رجلاً من ألنتيخو فوق عربته، وتقوم إضرابات هنا في المدينة وفي أماكن أخرى. ولكن في أي عالم تعيش، أنت الذي تعمل في صحيفة؟ اصغِ إلي يابيريرا، تُحسِن صنعاً إن أنت ذهبت واستعلمت قليلاً.

ادّعى بيريرا أنه خرج مضطرباً جداً من تلك المحادثة المقتضبة، ومن الطريقة التي تم طرده بها. تساءل: في أي عالم أعيش؟ وأتته فكرة غريبة بأنه ربما لم يكن حياً، وأنه كالميت.، بل أفضل من ذلك : أنه لم يكن يفعل شيئاً سوى التفكير بالموت، بقيامة الجسد التي لم يكن يؤمن بها وبحماقات أخرى من هذا النوع، وأن حياته لم تكن سوى نوع من البقاء، وَهْم حياة. ادّعى بيريرا أن شعوراً بالإنهاك حل به. استطاع أن يجرجر نفسه حتى أقرب موقف ترام، واستقل الترام المتجه إلى تيريرو دو باشو. راح يتطلع عبر النافذة، إلى مدينته لشبونة وهي تتابع إلى الوراء ببطء. نظر إلى شارع دا ليبرداد، بأبنيته الجميلة، ثم الـ براشا دو روسيو انكليزي الطراز. في تيريرو دو باشو، استقل قطاراً آخر يصعد حتى القصر. نزل عند الكاتدرائية لأنه كان يسكن في مكان قريب جداً من هناك، في شارع سودادي. تسلق بمشقة المنحدر الذي يؤدي إلى منزله. رن الجرس للبوابة لأنه لم يكن لديه رغبة بالبحث عن مفتاح البناء. جاءت البوابة التي كانت تعمل أيضاً مدبرة لشؤون بيته، وفتحت له.

قالت البوابة: دوتّور بيريرا، أعددتُ لك ضلعاً مقلياً من أجل العشاء. شكرها بيريرا، صعد السلالم ببطء، تناول مفتاح شقته من تحت ممسحة الأرجل، حيث كان يتركه دوماً، ودخل. توقف في المدخل أمام المكتبة، حيث صورة زوجته ،تلك الصورة التي التقطها بنفسه، عام ألف وتسعمائة وسبع وعشرين، أثناء رحلة إلى مدريد، وتظهر في خلفيتها كتلة الإسكوريال الضخمة. اعذريني إن تأخرت قليلاً، قال لها بيريرا.

ادّعى بيريرا أنه اعتاد منذ بعض الوقت أن يكلم صورة زوجته. كان يحكي لها ماحصل معه أثناء النهار، يبوح لها بأفكاره، ويطلب نصحها. قال بيريرا للصورة: لاأعرف في أي عالم أعيش، الأب أنطونيو أيضاً قال لي ذلك. المشكلة هي أني لاأفعل شيئاً سوى التفكير بالموت، يبدو لي أن العالم بأسره ميت، أو أنه يعيش الآن حالة موت. فكر بيريرا بعدها بالابن الذي لم يحصلا عليه. كان يريد ابناً، لكنه لم يكن يستطيع طلب ذلك من هذه المرأة الهشة والمتألمة التي كانت تمضي لياليها دون نوم ، إضافة إلى فترات طويلة في المصح. ندم على ذلك . لو كان لديه ابن في مثل هذا الوقت، ابن ناضج يجلس معه إلى المائدة ويتناقش معه، لما شعر بالحاجة للكلام إلى هذه الصورة التي كانت تعيده إلى رحلة بعيدة لم يعد يتذكرها. قال: حسناً، هكذا أفضل، وهي الصيغة التي يلجأ إليها لصرف صورة زوجته. ذهب إلى المطبخ، جلس إلى المائدة ورفع غطاء المقلاة. كان الضلع بارداً، لكنه لم يكن يرغب أن يسخنه. كان يأكله على الدوام هكذا، مثلما تركته له البوابة: بارداً. أكل بسرعة، ذهب إلى الحمام، غسل إبطيه، غيَّر قميصه، وضع ربطة عنق سوداء ورش على نفسه قليلاً من العطر الأسباني الذي بقي في زجاجة اشتراها عام ألف وتسعمائة وسبع وعشرين من مدريد. ارتدى سترة رمادية وخرج للذهاب إلى براشا دا آليغريا، لأن الساعة كانت قد بلغت التاسعة مساء، كما ادّعى بيريرا.

3

ادّعى بيريرا أن المدينة بدت ممسوكة بأيدي البوليس في ذلك المساء. كان رجال الشرطة في كل مكان. ركب سيارة أجرة حتى تيريرو دو باشو، حيث كانت شاحنات صغيرة ورجال شرطة مسلحون ببنادق قصيرة في الأروقة. ربما كانوا خائفين من حدوث مظاهرات أو تجمعات في الساحة، السبب الذي دعاهم لاحتلال النقاط الاستراتيجية في المدينة. كان يود لو يتابع طريقه سيراً على قدميه، لأن طبيب القلب قال له إنه تلزمه الحركة، لكن لم تكن لديه الشجاعة للمرور أمام هؤلاء العساكر المخيفين، فأخذ الترام الذي يطوف شارع فانكيروس كي يصل إلى براشا دي فيغويرا. ادّعى أنه نزل هناك، فوجد رجال بوليس آخرين. اضطر هذه المرة أن يمر أمام المفارز، وعانى من ضيق خفيف. سمع أثناء مروره ضابطاً يقول للجنود: وتذكّروا، ياشباب، أن المخربين يترصدون دوماً، من الأفضل أن تدعوا أعينكم مفتوحة.

نظر بيريرا حوله، كما لو أن النصيحة وجهت له، ولم يظهر له أن هناك حاجة لفتح العيون بشكل استثنائي. كان شارع ليبرداد هادئاً، وكشك بائع البوظة مفتوحاً وكان هناك أناس جالسين إلى الطاولات، أناس يبتردون في الخارج. راح يمشي بهدوء على الرصيف المركزي، وفي تلك اللحظة، ادّعى أنه بدأ يسمع الموسيقى.

كانت موسيقى ناعمة وكئيبة، فيها عزف على غيتارات من كوامبرا، ووجد هذا الالتقاء بين الموسيقى وبين قوات البوليس غريباً. فكر بأن الصوت كان قادماً من براشا دا آليغريا، وكان كذلك، لأنه كلما اقترب من المكان، كانت الموسيقى تشتد.

بالكاد يقول المرء إن تلك الساحة هي ساحة مدينة تعيش حالة حصار، ادّعى بيريرا، لأنه لم يرَ رجال بوليس، لا، بل رأى فقط حارساً ليلياً على مقعد، بدا له ثملاً ويغالب النعاس. كانت الساحة مزينة بالكشاكش والأكاليل الورقية، مع لمبات صغيرة صفراء وخضراء تتدلى من خيوط ممدودة تصل بين النوافذ. كان هناك طاولات في الخارج وبضع أزواج يرقصون. ثم رأى لافتة من القماش علقت بين شجرتين في الساحة، كتب عليها بخط ثخين: *المجد لِـ فرانسيسكو فرانكو*. وتحتها بحجم أصغر: *المجد للعسكريين البرتغاليين في أسبانيا*.

ادّعى بيريرا أنه في تلك اللحظة فهم أن الموضوع هو عبارة عن عيد سالازاري كبير، وأن هذا يفسر عدم الحاجة لإحاطته من قبل رجال البوليس. وفي تلك اللحظة فقط انتبه إلى أن كثيراً من الناس كانوا يرتدون القمصان الخضر والفولار حول الرقبة. توقف وقد اعتراه الذهول، وخلال لحظة فكر بأشياء عديدة مختلفة. فكر أنه ربما كان مونتيرو روسي واحداً من جماعتهم. فكر بسائق العربة من ألنتيخو الذي سال دمه فوق شماماته، فكر بما كان الأب أنطونيو سيقوله إن هو رآه في هذا المكان. فكر بهذا كله، جلس على المقعد الذي كان الحارس الليلي يغالب النعاس فوقه، واستسلم لأفكاره أو أنه استسلم للموسيقا، لأن الموسيقا كانت تعجبه رغم كل شيء. كان هناك عجوزان يعزف أحدهما على الكمنجة والآخر على الغيتار، ألحاناً من موسيقا الكوامبرا الموجعة التي تعود لأيام شبابه، حين كان طالباً جامعياً ويفكر بالحياة كمستقبل باهر. هو

أيضاً كان يعزف على الكمنجة في الأعياد الطلابية، كان نحيلاً وحيوياً، وكانت الفتيات يقعن في غرامه. يا لكل أولئك الفتيات اللواتي كن مجنونات به. وهو، بالعكس، فُتن بفتاة صغيرة الحجم، هشة وشاحبة، كانت تكتب الشعر وكثيراً ماتعاني من ألم في رأسها. فكر بأشياء أخرى من حياته، لكنها أشياء لايريد بيريرا أن يذكرها، لأنه يدّعي أنها أشياؤه وحده، وأنها لاتضيف شيئاً لهذه الأمسية أو لهذا العيد الذي جاء إليه رغماً عنه. ادّعى بيريرا أنه في لحظة معينة رأى شاباً طويلاً وممشوقاً يرتدي قميصاً فاتح اللون ينهض عن إحدى الطاولات ويذهب ليقف بين الموسيقيين. ولاأحد يعرف لماذا شعر بخفقة في قلبه، ربما لأنه تخيّل نفسه في هذا الشاب. لاح له أنه يعثر ثانية على نفسه أيام الكوامبرا، لأنّه بشكل ما، يشبهه، ليس من حيث الشكل، بل في طريقته في التحرك، وأيضاً قليلاً في شعره، بالخُصَل التي تنزل على جبينه. بدأ الشاب يغني أغنية إيطالية، «O sole mio» ، التي لم يكن بيريرا يفهم كلماتها، لكنها كانت أغنية مليئة بالقوة والحياة، جميلة ورائقة. لم يكن يفهم سوى الكلمات «o sole mio» ، لاشيء سواها. بينما كان الشاب يغني، هبَّ من جديد نسيم أطلسي. كانت الأمسية منعشة، وبدا له كل شيء جميلاً: حياته الماضية التي لايريد الكلام عنها، لشبونة، قبة السماء التي كانت تُرى فوق اللمبات الملونة. شعر بحنين كبير، لكن بيريرا لايريد القول إلى ماذا كان يحن. فَهِمَ على كل حال أن الشاب الذي كان يغني، هو الشخص الذي تحدث إليه في الهاتف، عصراً، بحيث أنه عندما انتهى هذا الشاب من الغناء، غادر بيريرا المقعد، لأن الفضول كان أقوى من التحفظ. توجه إلى الطاولة الصغيرة وقال للشاب: السيد مونتيرو روسي، كما أظن. ارتطم مونتيرو روسي وهو ينهض واقفاً، بالطاولة الصغيرة، فأوقع كأس البيرة الذي كان أمامه، محدثاً بقعة كبيرة فوق بنطلونه الأبيض الجميل. تمتم بيريرا: أرجوك أن تعذرني. قال الشاب: أنا هو الأخرق، كثيراً مايحدث لي ذلك. أفترض

أنك الـ دوتّور بيريرا من الـ*لِشْبُوَا*، تفضل بالجلوس أرجوك. ومد له يده.

ادّعى بيريرا أنه جلس إلى الطاولة الصغيرة شاعراً ببعض الحرج. فكر بأن مكانه ليس هنا، وأن لقاء شخص مجهول في عيد قومي، أمر عبثي، وأن الأب أنطونيو لم يكن ليؤيد تصرفه، وأنه كان يود لو يعود إلى بيته ويكلم صورة زوجته كي يسألها العفو. كان ذلك الخليط من الأفكار هو الذي منحه الشجاعة على طرح سؤال مباشر، للبدء بالحديث. ودون تفكير كثير توجه إلى مونتيرو روسي بالسؤال: هذا عيد للشبيبة السالازارية، هل أنت واحد من الشبيبة السالازارية؟

أعاد مونتيرو روسي خصلة الشعر التي نزلت على جبينه، إلى مكانها، وأجاب: حصلتُ على درجة أستاذ في الفلسفة، أهتم بالفلسفة وبالأدب، أما الأشياء الأخرى، فما علاقتها بجريدة *لِشْبُوَا*؟ ادّعى بيريرا أنه أجاب بأن هذه الأشياء لها علاقة، لأننا نصدر صحيفة حرة ومستقلة، ولانريد أن نتورط في السياسة.

في تلك اللحظة عاد العجوزان للعزف، باعثين من أوتارهما الكئيبة أغنية فرانكوية. فهمَ بيريرا رغم ضيقه، أنه دخل في اللعبة وأن عليه القيام بدوره. فَهِمَ، من جهة ثانية، وبصورة غريبة، أنه يستطيع القيام بهذا الدور، وأنه يسيطر على الموقف، لأنه الـ دوتّور بيريرا من صحيفة *لِشْبُوَا*، والشاب الجالس أمامه كان يصغي إليه بانتباه كلي. قال: قرأت مقالك عن الموت، بدا لي مهماً جداً. أجاب مونتيرو روسي: وضعت بحثاً عن الموت، ولكن دعني أَقُلْ لك بأن ماجاء فيه ليس من بنات أفكاري تماماً، فالمقطع الذي نشرته الصحيفة، أعترف لك بأنني نقلت قسماً منه من فويرباخ، وقسماً آخر من أحد الروحانيين الفرنسيين. أستاذي نفسه لم يلاحظ ذلك. الأساتذة، كما تعرف، هم أشد جهلاً مما نظن. ادّعى بيريرا أنه فكر

مرتين قبل أن يطرح السؤال الذي جهزه طيلة الأمسية، لكنه قرر أن يطرحه، بعد أن طلب شراباً من النادل الشاب ذي القميص الأخضر الذي يهتم بطاولتهما. قال لِ مونتيرو روسي، اعذرني، أنا لاأتناول المشروبات الكحولية، لاأتناول سوى شراب الليمون، سآخذ كأساً. بينما راح يرشف من شرابه، سأل بصوت منخفض، كما لو أن أحداً كان يمكن أن يسمعه أو يراقب كلامه: حسناً، عذراً، أريد أن أسألك، هل أنت مهتم بالموت؟

ابتسم مونتيرو روسي ابتسامة عريضة، وادّعى بيريرا أن ذلك سبَّب له الحرج. سأل مونتيرو روسي متعجباً: ولكن ماذا تقول يادوتّور بيريرا؟ الحياة هي التي تهمني. ثم تابع بصوت أخفض : اسمع، دوتّور بيريرا، لقد شبعت من الموت، منذ سنتين ماتت أمي. كانت برتغالية وتعمل مدرّسة، ماتت بين يوم وليلة، بسبب أمّ الدم في الدماغ، وهي كلمة معقدة تعني باختصار أن شرياناً قد انفجر. وفي العام الفائت مات والدي فجأةً، كان إيطالياً ويعمل مهندساً بحرياً في أحواض ميناء لشبونة. ترك لي بعض النقود، لكن هذه النقود نفدت. مازالت لي جدة تعيش في إيطاليا، لكني لم أعد أراها منذ الثانية عشرة من عمري، ولاأرغب بالذهاب إلى إيطاليا، حيث يبدو لي أن الوضع هناك أسوأ منه عندنا. الموت إذن، شيء شبعت منه حقاً، دوتّور بيريرا، اعذرني إن كنت صريحاً معك. ولكن أيضاً لِمَ هذا السؤال؟

شرب بيريرا جرعة من شرابه، مسح فمه بظاهر يده وقال: ببساطة لأن الصحيفة يجب أن ترثي الكتّاب على صفحاتها، أو على الأقل أن تنشر بياناً عن كل كاتب مهم يموت، وهذا البيان لايمكن ارتجاله، يجب أن يكون معداً سلفاً، وأنا أبحث عن شخص يكتب بيانات مسبقة لكبار كتّاب عصرنا. تخيل قليلاً لو أن مورياك مات غداً، كيف سأتدبر أمري عندئذ؟

ادّعى بيريرا أن مونتيرو روسي طلب كأساً آخر من البيرة.

شرب الشاب منذ وصوله ثلاثة كؤوس على الأقل من البيرة، إلى درجة أنه، في رأيه، يجب أن يكون قد سكر أو انتشى على الأقل. أعاد مونتيرو روسي خصلة الشعر التي هبطت على جبينه، إلى مكانها وقال: دوتّور بيريرا، أنا أتكلم جيداً عدة لغات، وأعرف كتاب عصرنا. أنا أحب الحياة، ولكنك إذا أردتني أن أكتب عن الموت، ودفعت لي لقاء ذلك، مثلما دفعوا لي هذا المساء لكي أغني أغنية إيطالية، أستطيع القيام بذلك، وبعد غد سأكتب لك رثاء لِ غارسيا لوركا، ماقولك بِ غارسيا لوركا؟ إنه في الحقيقة من ابتدع الطليعية الأسبانية، مثلما ابتدع كاتبنا بيسّوا، الحداثة البرتغالية، ثم إن لوركا فنان شامل، اهتم بالشعر، بالموسيقا وبالرسم.

ادّعى بيريرا أنه أجاب أن لوركا لايبدو له الشخص النموذجي، ولكن يمكن مع ذلك المحاولة، على أن يتم الكلام عنه بتحفظ ودراية، بالاعتماد على صورة الفنان، دون التعرض لجوانب أخرى، قد تكون حساسة، نظراً للوضع السائد. قال له مونتيرو روسي عندئذ، بأكبر قدر ممكن من الطبيعية : حسناً، اعذرني إن قلت لك ذلك بهذه الطريقة، سأكتب لك رثاء لِ غارسيا لوركا، ولكن هل يمكن أن تدفع لي النقود مقدماً؟ أحتاج لشراء بنطلون جديد، هذا البنطلون تبقّع تماماً، وفي الغد علي أن أخرج مع فتاة ستحضر الآن لتأخذني، والتي تعرفتُ عليها في الجامعة، إنها واحدة من زملائي وتعجبني كثيراً، أريد أن أصحبها إلى السينما.

4

ادّعى بيريرا أن الشابة التي وصلت، كانت ترتدي قبعة من القش. كانت جميلة جداً، بشرتها فاتحة، عيناها خضراوان وشفتاها مرسومتان بعناية. وترتدي فستاناً له حمالات تتقاطع في الخلف، مظهرةً كتفين ناعمين ومستويين تماماً.

هاهي مارتا، قال مونتيرو روسي. مارتا، أقدم لك الـ دوتّور بيريرا من صحيفة *لِشبَوا*، لقد وظفني هذا المساء، من الآن وصاعداً، أنا صحفي، لقد وجدت عملاً كما ترين. أجابت: فرصة سعيدة، أنا مارتا. ثم التفتت نحو مونتيرو روسي وقالت له: أتساءل لأي سبب أحضر أمسية من هذا النوع، ولكن بما أنني أتيت، ربما تستطيع دعوتي إلى الرقص، ياأحمقي الصغير، طالما أن الموسيقا أخّاذة والمساء رائع.

بقي بيريرا وحده على الطاولة الصغيرة، طلب كأس شراب ليمون آخر، وشربه بجرعات صغيرة وهو ينظر إلى الشابين اللذين يرقصان ببطء، خداً إلى خد. ادّعى بيريرا أنه في تلك اللحظة، فكر من جديد بحياته الماضية، بالأطفال الذين لم ينجبهم، لكنه لم يُرد الإدلاء بتصريحات أخرى بخصوص هذا الموضوع. بعد الرقصة، جاء الشابان وجلسا إلى الطاولة، وقالت مارتا، كما لو أنها تتحدث عن أمر آخر: اليوم اشتريت صحيفة الـ *لِشبَوا*، للأسف لم يُشر فيها لذلك

الشخص من ألنتيخو الذي اغتاله البوليس فوق عربته، وتكلمت عن يخت أمريكي، لاأظن أن هذا الخبر مهم جداً. انتاب بيريرا شعور غير مبرر بالذنب، وأجاب: مدير الصحيفة في أجازة، قرب الشواطئ، أنا لاأهتم سوى بالصفحة الثقافية، لأن الـ*لِشبُوا*، سيكون لها ابتداءً من الأسبوع القادم، صفحة ثقافية، أنا من سيديرها.

نزعت مارتا قبعتها ووضعتها على الطاولة، محررةً شلالاً من الشعر الكستنائي ذي الانعكاسات الحمراء، كما ادّعى بيريرا. بدت أكبر من رفيقها ببضع سنين، ربما ست وعشرين أو سبع وعشرين عاماً، مما دعاه لسؤالها: وأنت، ماذا تعملين؟ أجابت مارتا: أكتب رسائل تجارية لشركة تصدير واستيراد، أعمل في الصباح فقط، هكذا أستطيع في المساء أن أقرأ، وأتنزه وأن أرى مونتيرو روسي أحياناً. ادّعى بيريرا أنه استغرب أن تشير الشابة إلى مونتيرو روسي باسمه الكامل، كما لو أنهما مجرد زميلين. أياً كان، فإنه لم يُبد اعتراضاً. غيَّر الحديث وقال ببساطةٍ، لأجل الكلام: كنت أظن أنكما تنتميان للشبيبة السالازارية. ردت مارتا: وأنت؟ أجاب بيريرا، آه، شبابي ولّى منذ زمن لابأس به. أما السياسة، فلا أهتم بها كثيراً، غير أني لاأحب الأشخاص المتعصبين، ويبدو لي أن العالم مليء بالمتعصبين. أجابت مارتا: يجب التمييز بين التعصب والإيمان، فالإنسان قد تكون له مُثُلٌ عليا، يؤمن مثلاً، أن الناس أحرار ومتساوون وأخوة أيضاً.اعذرني ها قد رحت أستذكر شعار الثورة الفرنسية، هل تؤمن بالثورة الفرنسية؟ أجاب بيريرا: نظرياً نعم. ثم ندم على هذه الـ نظرياً، لأنه أراد أن يقول: عملياً نعم. لكنه في الحقيقة قال مايفكر به. في تلك اللحظة شرع العجوزان الصغيران الأول بـ كمنجته والآخر بـ غيتاره، بعزف فالس من مقام «فا» . قالت مارتا: دوتّور بيريرا، أود أن أرقص معك هذا الفالس. ادّعى بيريرا أنه نهض، ومدّ لها يده كي يقودها إلى منصة الرقص. رقص ذلك الفالس برشاقة، كما لو أن كرشه وكل اللحم والأشياء التي تحيط به

اختفت بفعل سحر ما. كان وهو يرقص ينظر إلى السماء فوق لمبات براشا دا آليغريا الملونة، وشعر بأنه ضئيل ذائب في الكون. فكر أن هناك رجلاً سميناً له مثل عمره، يرقص مع شابة في ساحة ما من الكون، وفي الوقت نفسه تدور النجوم، والكون في حالة حركة دائمة، وربما كان هناك شخص ما يتفرج علينا عبر منظار لاحدود له. عادا بعد ذلك إلى الطاولة الصغيرة. فكر بيريرا: لماذا لم أنجب أطفالاً؟ طلب كأس شراب ليمون آخر، ظاناً أن ذلك مفيد له، لأنه بعد ظهيرة ذلك اليوم، أصابته وعكة في أمعائه، مع هذا الحر الفظيع. أما مارتا، فكانت تثرثر كما لو أنها كانت تحس أنها على هواها تماماً، وتقول: حدَّثني مونتيرو روسي عن مشروعك الصحفي، تبدو لي الفكرة جيدة، فهناك كثير من الكتّاب الذين بلغوا من العمر مرحلة تجعلهم مؤهلين أن يرحلوا بين لحظة وأخرى، مع أنه يسعدني لو أن ذلك الرابانييتا غير المحتمل، الذي يسمي نفسه دانّونسيو، قد رحل وانتهى أمره منذ بضع شهور. وذلك المتزمت كلوديل، هو أيضاً يكفيه ماعاشه، ألا ترى ذلك؟ و ما من شك أن جريدتكم التي تبدو لي ذات ميول كاثوليكية، ستتحدث عنه بطيبة خاطر. ثم ذلك الوغد مارينيتي، ياله من قذر، بعد أن تغنى بالحرب والقذائف، انضم إلى صف ذوي القمصان السوداء، الموالين لِ موسوليني، سيكون أمراً جيداً أن يختفي هو أيضاً. ادّعى بيريرا أنه بدأ يتعرق قليلاً، وهمس قائلاً: اخفضي صوتك ياآنسة، لاأعرف إلى أي حد تدركين أين نحن. عندها، ارتدت مارتا قبعتها ثانية وقالت: حسناً لقد ضجرت من هذا المكان، إنه يثير أعصابي. سترون أنهم سيبدؤون بإنشاد المارشات العسكرية، من الأفضل أن أتركك مع مونتيرو روسي، لابد أن لديكما ماتتناقشان حوله. أنا من جهتي سوف أذهب إلى نهر التاج. أحتاج أن أتنفس هواء منعشاً، ليلة طيبة وإلى اللقاء.

ادّعى بيريرا أنه تنفس الصعداء. أنهى شرابه، واستهواه تناول كأس آخر، لكنه تردد لأنه لم يعرف كم من الوقت كان مونتيرو

روسي ينوي البقاء هنا. لذا سأله: ماقولك في تناول كأس آخر؟ وافق مونتيرو وقال إن وقت الأمسية بأكمله تحت تصرفه، وإنه يرغب بالحديث عن الأدب، فالفرص التي تتاح له لذلك، قليلة جداً. عادةً يتحدث في الفلسفة، ولايعرف إلا الأشخاص الذين يهتمون بالفلسفة فقط. في تلك اللحظة تذكر بيريرا جملةً كان يقولها له دائماً عمه الذي كان أديباً فاشلاً وقال: الفلسفة تعطي الانطباع بأنها تهتم بالحقيقة وحسب، لكنها ربما لاتقول سوى الفانتازيا، وربما تقول الحقيقة. ابتسم مونتيرو روسي وقال إن هذا الكلام يبدو له تعريفاً جيداً للإثنين. عندها سأله بيريرا: وما رأيك بـ برنانوس؟ بدا على مونتيرو روسي التشوش قليلاً، في البداية، وسأل: الكاتب الكاثوليكي؟ وافق بيريرا بحركة من رأسه، فقال مونتيرو روسي بصوت خفيض: أصغ إلي دوتّور بيريرا، أنا كما قلت لك في الهاتف، لا أفكر بالموت كثيراً، وأنا لاأفكر كثيراً، حتى بالكاثوليكية. تعرف أن والدي كان مهندساً بحرياً، ورجلاً عملياً يؤمن بالتقدم وبالتقنية، ربّاني في هذا الاتجاه، صحيح أنه كان إيطالياً، لكنه رباني قليلاً ربما على الطريقة الانجليزية، برؤية براغماتية للحقيقة.أنا أحب الأدب، ولكن ربما لايتفق ذوقانا، على الأخص فيما يتعلق ببعض الكتاب. مع ذلك فإني بحاجة ماسة للعمل، وعلى استعداد لأن أقوم بكتابة رثاء مسبق لكل كاتب تريده، أو بالأحرى تريده إدارة صحيفتكم. عند ذلك ادّعى بيريرا أنه انتفض انتفاضة كبرياء. استكبر أن يُعطيه هذا الشاب درساً في الأخلاق المهنية. باختصار، وجده متعجرفاً. فقرر أن يتبنى هو نفسه نبرة متعجرفة، وأجاب: خياراتي الأدبية لاترتبط بمديري، أنا من يدير الصفحة الثقافية، وأنا من يختار الكتّاب الذين يثيرون اهتمامي، ولهذا السبب قررت، أنا، أن أعهد إليك بالمهمة، وأعطيك حرية التصرف الكاملة. أردت أن أقترح عليك برنانوس ومورياك، لأنهما يعجباني، ولكن نظراً لمستوى التعامل بيننا فلن أقرر شيئاً، لك أن تقرر، افعل ماتجده

مناسباً. ادّعى بيريرا أنه شعر للوهلة الأولى بالندم على طرح نفسه بذلك الشكل، على كونه خاطر إزاء رئيسه، وأعطى صلاحية كاملة لهذا الشاب الذي لم يكن يعرفه والذي اعترف له ببراءه صبيانية أنه نقل بحثه من أجل نيل درجة الأستاذية. شعر خلال لحظة أنه وقع في الفخ. وفهم أنه وضع نفسه في موقف غبي مع رئيسه الخاص. ولكن لحسن الحظ أن مونتيرو روسي استأنف الحديث وبدأ يحكي عن برنانوس، الذي يعرفه معرفة حسنة على مايبدو. ثم قال: برنانوس رجل شجاع، لايخشى الكلام عن خفايا روحه. وعند هذه الكلمة: روح، شعر بيريرا بتحسن، كما ادّعى. كان الأمر كما لو أن بلسماً قد خفف عنه مرضاً، فسأل بشيء من الغباء: هل تؤمن بقيامة الجسد؟ لم أفكر بالأمر قط، أجاب مونتيرو روسي، هذه مسألة لاتعنيني، ربما أستطيع المرور غداً إلى مكتب التحرير، وربما أكتب لك أيضاً رثاءً مسبقاً لِ برنانوس، ولكني أفضل صراحةً، رثاء لِ غارسيا لوركا. قال بيريرا: طبعاً. هيئة التحرير هي أنا، ومكتبي يقع في شارع رودريغو دا فونسيكا، رقم ستة وستين، جانب شارع ألكسندر هركولانو، على بعد خطوتين من الملحمة اليهودية، إن التقيت بالبوابة على السلم، احتفظ ببرود أعصابك، إنها سيدة شرسة، قل لها إن لديك موعداً مع الـ دوتّور بيريرا، ولاتتكلم معها كثيراً، فلا بد أنها مخبرة للبوليس.

ادّعى بيريرا أنه لايعرف لماذا قال ذلك، ربما لأنه ببساطة، يكره البوابة ويكره البوليس السالازاري. المهم أنه قال هذا، ولم يكن هدفه خلق نوع من الشراكة المتخيّلة مع هذا الشاب الذي لم يكن قد عرفه بعد: لا لم يكن هذا هو السبب، وهو يجهل السبب الدقيق وراء ذلك، هكذا يدّعي.

5

في صباح اليوم التالي، عندما نهض بيريرا، ادّعى بأن عجة بالجبن بين شريحتين من الخبز، كانت بانتظاره. كانت الساعة هي العاشرة، ومدبرة البيت تأتي في الثامنة. لابد أنها أعدتها له لكي يأخذها معه إلى مكتبه، ليتناولها ساعة الغداء. كانت بييداد تعرف ذوقه تماماً، فقد كان بيريرا يحب العجة بالجبن جداً. تناول فنجان قهوة، استحم، وارتدى سترته لكنه قرر ألا يضع ربطة عنق، إلا أنه وضعها مع ذلك في جيبه. قبل أن يخرج، توقف أمام صورة زوجته وقال لها: وجدت شاباً يدعى مونتيرو روسي، وقررت أن أوظفه كمساهم من خارج الصحيفة لكي يكتب بيانات تأبينية مسبقة. كنت أعتقد أنه واعٍ جداً، لكنه، على العكس ، مضطرب قليلاً، كان يمكن أن يكون بعمر ولدنا، لو أننا أنجبنا ولداً. إنه يشبهني قليلاً بخصلة شعره التي تنزل فوق جبينه. تذكرين عندما كانت لي أنا أيضاً خصلة شعر تنزل على جبيني؟ حين كنا في كوامبرا. حسناً، الآن لاأعرف ماذا أقول لك، سنرى. سوف يأتي إليّ اليوم في المكتب. قال لي إنه سيأتيني ببيان تأبيني. لديه صديقة شابة جميلة جداً تدعى مارتا. شعرها بلون النحاس، لكنها تُبالغ في التصرف على هواها وتتكلم في السياسة. إذن، لننتظر ونرى ماسيحدث.

استقل القطار حتى شارع ألكسندر هركولانو، ثم صعد بمشقة

على قدميه شارع رودريغو دا فونسيكا. حين وصل إلى مدخل البناء، كان العرق ينصب منه، لأن ذلك النهار كان حارقاً. في باحة المبنى، التقى كالعادة بالبوابة التي حيته قائلة له: صباح الخير دوتّور بيريرا. رد بيريرا تحيتها بإشارة من رأسه وصعد السلالم. وما أن دخل المكتب، حتى خلع سترته وشغّل المروحة. لم يكن يعرف ماذا يفعل، وكان الوقت يقترب من منتصف النهار. فكر أن يأكل شطيرة العجة، لكن الوقت كان مايزال باكراً. عند ذلك تذكر زاوية «حدث ذات يوم» ، وبدأ يكتب: «مضت على وفاة الشاعر الكبير فرناندو بيسّوا، ثلاثة أعوام. كان ذا ثقافة انكليزية واختار الكتابة بالبرتغالية، لأنه يصر على أن وطنه هو اللغة البرتغالية. ترك لنا بيسّوا أشعاراً جميلة جداً مبعثرة في المجلات، وقصيدة صغيرة بعنوان *«رسالة»*، تروي تاريخ البرتغال من وجهة نظر فنان كبير كان يحب وطنه.» أعاد قراءة ماكتب فوجده كريهاً، نعم، هي ذي الكلمة، كريه، كما ادّعى بيريرا. ألقى بالورقة في السلة، وكتب: «غادَرَنا فرناندو بيسّوا منذ ثلاثة أعوام. نادرون أولئك الذين لاحظوا وجوده. عاش في البرتغال مِثْلَ غريب، ربما لأنه كان غريباً حيثما كان. عاش وحده، في فنادق متواضعة أو في غُرَف مستأجرة. يذكره أصدقاؤه، ويذكره المطّلعون، ومن يحبون الشعر.»

بعدها تناول شطيرة العجة، وأخذ منها قضمة. في تلك اللحظة سمع طرقاً على الباب، خبأ شطيرة العجة في الدرج، مسح فمه بورقة رقيقة من أوراق الآلة الكاتبة، وقال: تفضل. إنه مونتيرو روسي. طاب نهارك، قال مونتيرو روسي، عذراً، ربما أتيت مبكراً، لكني أحضرت لك شيئاً، أقصد باختصار، أمس مساءً، عندما عدت إلى المنزل، جاءني وَحْي مفاجئ، ثم فكرت أنه أمكننا ربما أن نأكل شيئاً هنا في الجريدة. شرح له بيريرا بصبر، أن هذه الحجرة ليست الجريدة، بل هي فقط مكتب تحرير القسم الثقافي، وأنه هو، بيريرا، يشكل هيئة التحرير، وأن القسم الثقافي ، كما سبق وقال له، فيما

يظن، عبارة عن غرفة وطاولة مكتب ومروحة، لأن الـ *لِسْتِوَا* كانت جريدة مسائية خفيفة. جلس مونتيرو روسي وأخرج من جيبه ورقة مطوية أربع طيات. أخذها بيريرا وقرأها. مقال لاينشر، كما ادّعى بيريرا. وكان بالفعل مقالاً لاينشر لأنه كان يصف موت غارسيا لوركا ويبدأ بالشكل التالي: «منذ عامين، وفي ظروف غامضة، غادرنا الشاعر الأسباني الكبير فيديريكو غارسيا لوركا. تتجه الظنون إلى خصومه السياسيين لأنه اغتيل اغتيالاً. مازال الجميع يتساءلون، كيف أمكن أن تقع بربرية من هذا النوع.»

رفع بيريرا بصره عن الورقة وقال: عزيزي مونتيرو روسي، أنت رومانسي كامل، لكن جريدتي ليست المكان الملائم لكتابة الروايات. في الصحف تُكتب أشياء تنسجم أو تتشابه مع الحقيقة. ليس عليك أن تقول عن كاتبٍ ما، كيف مات، وفي أية ظروف، ولماذا، عليك أن تقول ببساطة إنه مات، ثم عليك أن تتكلم عن أعماله، رواية أو شعراً، مؤبناً إياه بالطبع، في مقال يجب أن يكون في الحقيقة مادةً نقدية، صورة للرجل ولنتاجه. إن ماكتبته لايصلح بتاتاً للنشر، فما زال الغموض يحيط بموت غارسيا لوركا. وماذا لو لم تكن الأمور قد جرت كما تؤكد أنت؟

اعترض مونتيرو روسي بأنّ بيريرا لم ينته من قراءة المقال، وأنّه كتب عن إبداع لوركا ورسم له صورة شخصيه، كما تحدث عن قامته كرجل وكفنان في موضع آخر من المقال. أنهى بيريرا القراءة بصبر. ادّعى قائلاً إن المقال خطير. فهو يحكي عن أعماق أسبانيا، عن أسبانيا الكاثوليكية جداً التي اتخذ منها لوركا دريئةً، سدَّد عليها سهامه في «*بيت برناردا*»، وعن الـ «باراكا»، ذلك المسرح المتجول الذي قدّمه لوركا للشعب. وهنا يكيل المقال المديح للشعب الأسباني، الذي كان متعطشاً للثقافة والمسرح، اللذين جاء لوركا وأعطاهما حقهما. رفع بيريرا رأسه عن المقال، أعاد شَعره إلى مكانه، شمر

أكمام قميصه وقال: عزيزي مونتيرو روسي، اسمح لي أن أكون صريحاً معك، مقالك لايصلح للنشر، فعلاً لايصلح. على أية حال، أنا لاأستطيع نشره، لكن حقيقة القول أنّه ليس هناك أية جريدة برتغالية تستطيع نشره، ولا حتى أية جريدة إيطالية، نظراً لأن إيطاليا هي موطنك الأصلي. هناك إذن فرضيتان: إما أنك لاتعي ماتقوله أو أنك محرِّض، والصحافة الجارية اليوم لاتفسح مكاناً للمتهورين ولا للمحرضين، كل القصة تكمن هنا.

ادّعى بيريرا أنه بينما كان يقول ذلك، كانت شبكة من خيوط العرق تغمره على طول ظهره. لماذا بدأ يتعرق؟ لاأحد يعرف. هذا مالايستطيع قوله بدقة. ربما لأن الطقس كان حاراً جداً، دون شك، ولأن المروحة لم تكن كافية لتهوية تلك الغرفة الضيقة. وربما أيضاً لأن هذا الشاب ذا الهيئة المضطربة والخائبة، الذي راح يقضم أظافره وهو يسمعه، كان يثير الألم في نفسه. لهذا السبب لم يجد في نفسه الشجاعة ليقول له: فليكن، هي تجربة، لكنها لم تنجح. بل بالعكس، ظل ينظر إلى مونتيرو روسي، مصالباً ذراعيه. فقال مونتيرو روسي: أعيد كتابته، أعيد كتابته غداً. وجد بيريرا القوة الكافية ليقول له: لا أرجوك، لاشيء عن غارسيا لوركا، رأفةً بي. ففي حياته وفي موته الكثير من المظاهر التي لاتناسب جريدة مثل *لِشبُوَا*، لاأعرف إن كنت تدرك، ياعزيزي مونتيرو روسي، أن حرباً أهلية تقوم الآن في أسبانيا، وأن السلطات البرتغالية ترى الأمور كما يراها الجنرال فرانسيسكو فرانكو، وأن غارسيا لوركا كان مخرِّباً، نعم، هذه هي الكلمة المناسبة، مخرِّب.

نهض مونتيرو روسي كما لو أنه كان يخشى هذه الكلمة، تراجع حتى الباب، توقف، ثم تقدم خطوة وقال: أنا الذي كنت أظن أنني وجدت عملاً. لم يجب بيريرا، وشعر مجدداً أن شبكة من خيوط العرق تسيل على طول ظهره. قال مونتيرو روسي هامساً بصوت كان يبدو

متوسلاً: وإذن، ماذا يجب أن أعمل؟ ادّعى بيريرا أنه نهض بدوره، ومضى للجلوس مقابل المروحة. بقي صامتاً خلال بضع دقائق تاركاً الهواء المنعش يجفف قميصه، وأجاب: عليك أن تكتب لي رثاء لِ موريال أو لِ برنانوس، الخيار لك. لاأدري إن كنت واضحاً بالنسبة لك. قال مونتيرو روسي متلعثماً: لكني عملت طوال الليل، وكنت أتوقع أن يُدفع لي، أنا في الحقيقة لاأطلب الكثير. فقط مايكفيني لغداء اليوم. أراد بيريرا أن يقول له، إنه في مساء اليوم السابق، أعطاه مقدماً مبلغاً من النقود لكي يشتري لنفسه بنطلوناً جديداً، وليس بإمكانه بالطبع أن يُمضي الوقت في إعطائه النقود، لأنه ليس والده. أراد أن يكون حازماً وقاسياً. لكنه على العكس، قال: إذا كانت مشكلتك هي غداء اليوم، حسناً، أستطيع أن أدعوك، أنا كذلك لم أتناول الغداء هذا اليوم، وأشعر بقدرٍ كافٍ من الجوع، يناسبني أن آكل سمكة معتبرة مشوية، أو شريحة عجل مقلية، ماقولك؟

لماذا تكلم بيريرا هكذا؟ هل لأنه كان وحيداً ولأن هذه الحجرة تسبب له الغم، أم لأنه كان جائعاً بالفعل، أم لأنه فكر بصورة زوجته، أم لسبب مختلف آخر؟ هذا مالايستطيع أن يقوله، كما ادّعى.

6

ادّعى بيريرا أنه دعاه للغداء، وأنه اختار مطعماً في روسيو. بدا له ذلك خياراً مناسباً لهما، لأنهما في الحقيقة كانا شخصين مثقفينْ، وكان ذلك المقهى والمطعم مقصداً للأدباء، وهو مكان عرف المجد في فترة العشرينيات، وعلى طاولاته الصغيرة حُررت المجلات الطليعية. باختصار، كان الجميع يؤمونه في ذلك العصر، وربما كان بعض الأشخاص مازالوا يذهبون إليه.

نزلا شارع دا ليبرداد، صامتين، ووصلا إلى روسيو. اختار بيريرا طاولة صغيرة في الداخل، لأن الطقس في الخارج تحت المظلة كان حاراً جداً. ادّعى أنه نظر حوله لكنه لم ير أي أديب. قال لكي يكسر الصمت: جميع الأدباء في إجازة، نعم، هم حتماً في إجازة ، إمّا في البحر أو في الريف، نحن وحدنا بقينا في المدينة. أجاب مونتيرو روسي: ربما بقوا ببساطة في بيوتهم، فليس مؤكداً أن تكون لديهم رغبة شديدة بالتنزه، في الأوضاع السائدة الآن . شعر بيريرا بنوع من الكآبة وهو يفكر بهذه الجملة، كما ادّعى. فهِمَ أنهما وحدهما، وأنّه لم يكن حولهما أحد يمكنهما أن يشاركاه الغم الذي يشعران به. لم يكن في المطعم سوى امرأتين عجوزين ترتدي كل منهما قبعة، وفي إحدى الزوايا، أربعة رجال لهم أشكال مخيفة. اختار بيريرا طاولة منعزلة، ربط فوطته حول رقبته، كما يفعل دوماً،

وطلب نبيذاً أبيض. أوضح قائلاً: أحتاج أن آخذ مقبلاً. طلب مونتيرو روسي كأس بيرة مضغوطة، فسأله بيريرا إذا كان لايحب النبيذ الأبيض. أجاب مونتيرو روسي: أفضّل البيرة، فهي أبرد وأخف، ثم إني لاأفقه شيئاً في الخمور. همس بيريرا: خسارة، إذا أردت أن تصبح ناقداً جيداً، عليك أن تهذب ذوقك، وأن تثقف نفسك، أن تتعلم كيف تتعرف على أنواع النبيذ، على أصناف الطبخ، على العالم، ثم أضاف: والأدب. في تلك اللحظة تلعثم مونتيرو روسي قائلاً: لدي شيء أود الاعتراف لك به، لكني لاأجد الشجاعة. أجاب بيريرا: فقط قل، وأنا سوف أتظاهر أني لم أفهم. قال مونتيرو روسي: فيما بعد.

ادّعى بيريرا أنه طلب سمكة مرجان مشوية، وطلب مونتيرو روسي غاسباتشو وأرز بثمار البحر. جيء بالأرز في حلة هائلة من الفخار المشوي، أكل منه مونتيرو روسي ثلاثة أطباق، كما ادّعى بيريرا، وأتى على الحلة كلها، مع أن الكمية كانت هائلة. ثم رفع خصلة الشعر التي تنزل على جبينه وقال: أستطيع بطيبة خاطر أن أتناول طبقاً من البوظة، أو مجرد شراب ليمون مثلج. حسب بيريرا في ذهنه كم سيكلفه هذا الغداء، ووصل إلى نتيجة أن قسماً معتبراً من راتبه الأسبوعي سيصرف في هذا المطعم حيث ظن أنّه سيلتقي بأدباء لشبونة، وحيث، على العكس، لم يكن هناك سوى عجوزين ترتديان قبعتين، وأربعة وجوه مشؤومة على طاولة في إحدى الزوايا. راح يتعرق ثانية ونزع الفوطة من ياقة قميصه، طلب مياهاً معدنية مبردة وقهوة، ثم ثبت نظره في عيني مونتيرو روسي وقال: الآن اعترف لي بما أردت الاعتراف به قبل الأكل. ادّعى بيريرا أن مونتيرو روسي راح ينظر إلى السقف، ثم نظر إليه وتلافى نظرته، سَعَلَ واحمرّ مثل طفل وأجاب: اعذرني، أشعر ببعض الحرج. قال بيريرا: إنه لايوجد في هذا العالم مايجب أن نخجل منه، إذا لم نسرق ولم نجلب العار لأبينا وأمنا. مسح مونتيرو روسي فمه بالفوطة، كمن يريد منع الكلمات من الخروج. أعاد خصلة الشعر التي كانت

تنزل فوق جبينه، إلى مكانها، وقال: لاأجد الكلمات، الحقيقة أنني أعرف أنك تطالب بالحِرَفية، وتريدني أن أفكر بدماغي، لكن الواقع هو أني فضلت اتباع أسباب أخرى. حثه بيريرا قائلاً: أفْصِح أكثر. تلعثم مونتيرو روسي قائلاً: حسناً، حسناً، الحقيقة هي، الحقيقة هي أنني اتبعت أسباب القلب، ربما لم يكن يجدر بي ذلك، وربما لم أكن أريد ذلك، لكن ذلك كان أقوى مني، أقسم لك أنه كان باستطاعتي أن أكتب رثاء لِ غارسيا لوركا تحكمه أسباب العقل، لكن ذلك كان أقوى مني. مسح فمه مجدداً وأضاف: ثم إني أحب مارتا. اعترض بيريرا: وما شأن هذا؟ أجاب مونتيرو روسي: لاأعرف، ربما لم يكن له شأن، إلا أنه أيضاً، سبب من أسباب القلب، ألا يبدو لك ذلك؟ ومشكلة أيضاً، بشكل ما. كان بيريرا يريد أن يجيب، بأن المشكلة هي أنك لايجوز أن تضع نفسك في مشاكل أكبر منك. كان بيريرا يريد أن يقول، إن المشكلة هي أن العالم مشكلة، ولن نكون نحن، بالتأكيد، من سيحلها. كان بيريرا يريد أن يقول، إن المشكلة هي أنك شاب، شاب جداً، كان يمكن أن تكون ابني، ولكن لايعجبني أن تتعامل معي وكأنني والدك، أنا لست هنا لأجل حل تناقضاتك. أراد بيريرا أن يقول، إن المشكلة هي أنه يجب أن تقوم بيننا علاقة صحيحة ومهنية، وأنك يجب أن تتعلم الكتابة، بطريقة أخرى. إذا كنتَ تتبع أسباب القلب، فسوف تجر على نفسك تعقيدات كبيرة، أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

لكنه لم يقل شيئاً من هذا كله. أشعل سيجاراً، مسح عرقه الذي كان ملتصقاً بجبينه، فك الزر العلوي من قميصه وقال: أسباب القلب هي أهم الأسباب، يجب اتباع أسباب القلب دائماً، هذا ليس وارداً في الوصايا العشر، لكني أقوله أنا، يجب في الوقت نفسه أن يظل المرء صاحياً تماماً، ياعزيزي مونتيرو روسي، وبناءً على هذا، لقد انتهى غداؤنا. لاتتصل بي في الأيام الثلاثة أو الأربعة القادمة، أترك لك كل

الوقت لكي تفكر وتنتج شيئاً موفقاً، على أن يكون موفقاً فعلاً، اتصل بي يوم السبت القادم، في مكتب التحرير، حوالى الظهر.

نهض بيريرا ومد له يده قائلاً له إلى اللقاء. لماذا قال له هذه الأشياء في حين أنه أراد أن يقول العكس، حيث أراد أن يعنّفه، وربما أيضاً أن يصرفه؟ لايعرف بيريرا السبب. ربما لأن المطعم كان مهجوراً، فلم ير أي أديب، ربما لأنه كان يحس بالوحدة في هذه المدينة، ويحتاج لشريك وصديق؟ ربما لجميع هذه الأسباب، ولأسباب غيرها لايستطيع تفسيرها. إذ من الصعب أن يكون للمرء قناعة محددة، حين يجري الكلام عن أسباب القلب، كما يدّعي بيريرا.

7

يوم الجمعة التالي، حين وصل بيريرا إلى مكتب التحرير، يحمل العلبة وبداخلها شطيرة العجة، ادّعى أنه رأى مغلفاً يظهر طرفه من علبة بريد الـ*لِشبَوا*. تناوله ووضعه في جيبه. على درجات الطابق الأول، التقى بالبوابة التي قالت له: صباح الخير دوتّور بيريرا، توجد رسالة مستعجلة لك، أحضرها ساعي البريد حوالى الساعة التاسعة، اضطررت أنا أن أوقع. غمغم بيريرا من بين أسنانه بكلمة شكراً، وتابع صعود الدرج. قالت البوابة متابعة كلامها: أنا تحملت مسؤوليتها، لكني لاأريد جلب المتاعب لنفسي، نظراً لأن الرسالة لاتحمل اسم المرسل. ادّعى بيريرا أنه عاد ونزل ثلاث درجات، نظر في وجهها، وقال: اسمعي يا سيليست، أنت البوابة وهذا يكفيك، تأخذين أجرك كبوابة، وتتقاضين راتباً من المستأجرين في هذا المبنى، وبين هؤلاء المستأجرين، هناك الصحيفة التي أعمل فيها، ولكن لديك عيباً، أنك تحشرين أنفك في أشياء لاشأن لك بها. في المرة القادمة إذن، حين تصلني رسالة مستعجلة، لاتوقعي ولاتنظري إليها، وقولي لساعي البريد أن يعود لاحقاً، وأن يسلمني إياها شخصياً. ركنت البوابة المكنسة التي كانت تنظف الدرجات بها، أسندت يديها إلى ردفيها، وقالت: دوتّور بيريرا، أنت حتماً تعتبر أنه من حقك مخاطبتي بهذه اللهجة لأني لست سوى بوابة بسيطة، ولكن

اعلم أن لي أصدقاء من مراتب عالية، أشخاص يستطيعون حمايتي من الثقافة السيئة. ادّعى بيريرا أنه قال: أفترض ذلك، أو بالأحرى أعلم ذلك، وهذا هو بالضبط مالايعجبني، والآن إلى اللقاء.

عندما فتح بيريرا باب الغرفة، شعر أنه منهك، وأنه يتعرق بغزارة. شغّل المروحة وجلس إلى مكتبه. وضع شطيرة العجة على ورقة للآلة الكاتبة وأخرج الرسالة من جيبه. كُتب على المغلف: دوتّور بيريرا، الـ « *لِشبُوَا*»، شارع رودريغو دا فونسيكا 66 ، لشبونة. كان الخط أنيقاً، بالحبر الأزرق السماوي. وضع بيريرا الرسالة قرب الشطيرة وأشعل سيجاراً. منَعَهُ طبيب القلب من التدخين، لكنه كان الآن بحاجة لسحب نَفَسيْن، مع احتمال إطفاء السيجار فيما بعد. فكّر أنه قد يفتح الرسالة لاحقاً، لأن عليه للتو أن يعد الصفحة الثقافية لليوم التالي. فكّر أن يعيد النظر في المقال الذي كتبه لزاوية «حدث ذات يوم» عن بيسوّا، لكنه قرر أنه لابأس به كما هو. شرع عندئذ في قراءة قصة موباسان التي ترجمها بنفسه، ليرى إن كان هناك مايجب تصحيحه. لم يجد شيئاً. كانت القصة خالية من الأخطاء فابتهج بيريرا لذلك. شعر فجأةً أنه في حال أفضل قليلاً، كما ادّعى. أخرج بعدها من جيب سترته صورة لِ موباسان، وجدها في مجلة بمكتبة البلدية. كانت صورة بقلم الرصاص، نفذها رسام فرنسي مجهول. تبدو على موباسان فيها هيئة يائسة، بلحيته غير المحلوقة جيداً وعينيه الزائغتين في الفراغ. فكر بيريرا أنها صورة ممتازة لتوضع مع القصة، لأن القصة تحكي عن الحب وعن الموت، مما يتطلب صورة تميل إلى التراجيدية. يحتاج الأمر إلى إطار وسط المقال، يتضمن معلومات بيوغرافية عن موباسان. فتح بيريرا معجم لاروس الذي يضعه فوق مكتبه وبدأ ينقل. كتب: «غي دو موباسان، من عام 1850إلى عام 1893. ورث مع أخيه هيرفيه، مرضاً عن الأب ذا منشأ زهري، قاده في بداية الأمر إلى الجنون، ثم أودى بحياته وهو شاب. في العشرين من عمره، شارك في الحرب

بين فرنسا وبروسيا، وعمل في وزارة البحرية. كان كاتباً موهوباً، ذا رؤية ساخرة، وصف في قصصه مَواطن ضعف المجتمع الفرنسي في حقبة معينة، ومواطن الشر فيه. كتب أيضاً روايات حققت نجاحاً كبيراً مثل رواية *الصديق الجميل*، والرواية الغرائبية *الـ هورلا*. أصيب بنوبة جنون وأسعف إلى عيادة الدكتور بلانش، حيث مات فقيراً ومهجوراً.»

أخرج شطيرة العجة وأكل منها ثلاث أو أربع قضمات وألقى الباقي في المهملات، لأنه لم يكن جائعاً، ولأن الطقس كان حاراً جداً كما ادّعى. في تلك اللحظة فتح الرسالة. كانت عبارة عن مقال مطبوع بالآلة الكاتبة، على ورق ممتاز النوعية، كان العنوان يقول: *فيليبو توماسو مارينيتي توفي*. شعر بيريرا بخفقة في قلبه، لأنه، ودون حتى أن ينظر إلى الصفحة الثانية، عرف أن المرسل هو مونتيرو روسي، وفهم في الوقت نفسه أنه مقال لايصلح لشيء، كان مقالاً غير مفيد. أراد رؤية مقال تأبيني لِ برنانوس أو لِ مورياك، اللذين ربما كانا يؤمنان بقيامة الجسد، أما هذا المقال فهو عن فيليبو توماسو مارينيتي، الذي يؤمن بالحرب. بدأ بيريرا بقراءة المقال. كان بالفعل مقالاً يصلح أن يلقى به في المهملات، لكن بيريرا لم يلق به، ولا أحد يعرف لماذا احتفظ به، ولأنّه احتفظ به، يستطيع أن يظهره كوثيقة. كان يبدأ على النحو التالي: «باختفاء مارينيتي، اختفى رجل عنيف. لأن العنف كان إلهامه. كان قد بدأ عام 1909 بنشر *بيان المستقبل* في صحيفة باريسية، البيان الذي مجّد فيه أساطير الحرب والعنف. وكَعدوٍ للديمقراطية، وكَمحبٍ للحرب وداعية لها، مجّد بعد ذلك الحرب، في قصيدة صغيرة بعنوان: *زانغ طمب طمب*، وهي عبارة عن وصف صوتي للحرب في أفريقيا بقيادة الاستعمار الإيطالي. قاده إيمانه الاستعماري إلى تمجيد التورط الإيطالي في ليبيا. كان من بين ماكتبه، بيان منفر جاء فيه: *الحرب وحدها صحّة للعالم*. تبينّ لنا الصور رجلاً بأوضاع متغطرسة،

بشاربين أجعدين، وبسترة الأكاديمي المليئة بالميداليات. فقد منحته الفاشية الإيطالية الكثير منها، لأنه شكل بالنسبة لها دعماً شرساً. بموته يختفي شخص مريب، محرض على الحرب...»

توقف بيريرا عن قراءة القسم المضروب على الآلة الكاتبة، وانتقل إلى الرسالة. لأن المقال كان مصحوباً برسالة بخط اليد. كانت تقول: «عزيزي الـ دوتّور بيريرا، اتبعت أسباب القلب، لكن الخطأ ليس خطأي. فقد قلت لي بنفسك إن أسباب القلب هي الأهم. لاأدري إن كان هذا البيان التأبيني صالحاً للنشر، وربما يعيش مارينيتي عشرين سنةً أخرى، من يدري. على أية حال إذا أردت أن ترسل لي شيئاً سأكون ممتناً لك. لاأستطيع في الوقت الحاضر المرور إلى مكتب التحرير، لأسباب أمتنع عن شرحها. إذا أردت أن ترسل لي المبلغ الصغير الذي تراه مناسباً، يمكنك وضعه في مغلف باسمي وإرساله إلى صندوق بريد 202، البريد المركزي، لشبونة. سأبلغك أخباري بالهاتف. تفضل بقبول أفضل تحياتي وتمنياتي الطيبة. من المخلص مونتيرو روسي.»

دس بيريرا مقال التأبين والرسالة في ملف أرشيفي، وكتب على غلافه: *مقالات تأبين*. لبس سترته، رقّم صفحات قصة موباسان، أخذ الأوراق وخرج يحمل كل ذلك إلى المطبعة. كان يتعرق، وسيء المزاج، ويأمل ألا يلتقي بالبوابة على السلم، كما ادّعى.

8

يوم السبت، في منتصف النهار تماما، ادّعى بيريرا أن الهاتف رن. لم يكن بيريرا، في ذلك اليوم، قد أحضر معه شطيرة العجة إلى مكتب التحرير، ويعود السبب في ذلك لأمرين ، فهو يحاول أن يسقط وجبة من وقت لآخر، عملاً بنصيحة طبيب القلب، كما أنه يستطع دوماً ، إذا لم ينجح في مقاومة الجوع، أن يذهب لتناول العجة في مقهى أوركيديا.

قال صوت مونتيرو روسي: طاب يومك دوتّور بيريرا، أنا مونتيرو روسي. قال بيريرا: كنت بانتظار هاتفك، أين أنت؟ قال مونتيرو روسي: أنا خارج المدينة. ألح بيريرا قائلاً: عذراً، ولكن خارج المدينة أين؟ أجاب مونتيرو روسي: خارج المدينة. شعر بيريرا بشيء من الغيظ، كما ادّعى، بسبب هذه الطريقة الحذرة جداً والشكلية جدا في الكلام. لقد تمنى قدراً أكبر من المودة من جانب مونتيرو روسي، وأيضاً قدراً أكبر من العرفان، إلا أنه تمالك غيظه وقال: أرسلت لك نقوداً إلى علبة بريدك. قال مونتيرو روسي: شكراً، سأمر لسحبها. ولم يقل شيئاً آخر. لذا سأله بيريرا: متى تنوي القدوم إلى مكتب التحرير؟ قد يكون الكلام المباشر أمراً مناسباً. رد مونتيرو روسي: لاأعرف متى سيكون بوسعي المرور. كنت منذ لحظات، والحق يقال، أكتب إليك رسالة صغيرة لتحديد موعد، في

مكان ما، وليس في المكتب، إذا كان ذلك ممكناً. ادّعى بيريرا أنه علم آنذاك، بوجود أمر ليس على مايرام، فخفض صوته كما لو أن أحداً آخر سوى مونتيرو روسي قد يسمعه، وسأل: لديك مشاكل؟ لم يجب مونتيرو روسي، وظن بيريرا أنه لم يفهم، فكرر سؤاله: ألديك مشاكل؟. قال صوت مونتيرو روسي: بشكل من الأشكال نعم. ولكن يفضل عدم الكلام عن ذلك في الهاتف، سأكتب لك رسالة صغيرة لتحديد موعد في حوالى منتصف الأسبوع. أنا في الواقع بحاجة إليك، دوتّور بيريرا، أحتاج لمساعدتك. لكني سأحدثك عن ذلك عندما نلتقي. والآن اعذرني، فأنا أتكلم من مكان غير مريح جداً، ومضطر لإنهاء المكالمة. صبراً دوتّور بيريرا، سنتحدث عندما نلتقي. إلى اللقاء.

انقطع الخط، وعلق بيريرا السماعة بدوره. كان قلقاً، كما ادّعى. فكر بما يستطيع أن يفعله، واتخذ قراراً. سيذهب الآن لتناول كأس شراب ليمون في مقهى أوركيديا، حيث سيبقى بعدها ليأكل عجة. وبعد الظهر، سيأخذ القطار إلى كوامبرا للتوجه إلى حمامات بوشاكو المعدنية الحارة. سيلتقي بمديره حتماً، لا مفر من ذلك، ولم يكن لدى بيريرا أية رغبة بالكلام معه. إلا أنه ستكون لديه حجة جيدة كيلا يبقى بصحبته، ففي منطقة الحمامات، كان هناك صديقه سيلفا الذي يُمضي الإجازة، والذي دعاه لزيارته عدة مرات. كان سيلفا واحداً من رفاق المدرسة القدامى أيام كوامبرا، وحالياً، يدرّس الأدب في جامعة تلك المدينة. كان رجلاً مثقفاً، عاقلاً، هادئاً وعازباً، وسيكون من الممتع قضاء ثلاثة أيام معه. ثم إنه سيشرب من مياه الحمة المفيدة تلك. سيتجول في المنتزه، وربما يقوم ببعض جلسات استنشاق للأبخرة المنبعثة من الحمة، ذلك لأنه كان يتنفس بصعوبة، خاصةً عندما يصعد السلالم، إذ يضطر عندها إلى التنفس بفمٍ مفتوح .

ترك على الباب بطاقة: «أعود وسط الأسبوع. بيريرا.» لحسن حظه لم يصادف البوابة على الدرج، مما قوّى من عزمه. خرج إلى ضوء الظهيرة المبهر واتجه إلى مقهى أوركيديا. حين مر أمام الملحمة اليهودية، رأى جمهرةً من الناس فتوقف. لاحظ أن زجاج المحل قد تشظى ألف قطعة، وأن الواجهة الخارجية لطخت بكتابات كان الجزار يقوم بإزالتها بواسطة الدهان الأبيض. اندس عبر الناس واقترب من الجزار الشاب دافيد مائير، لأنه كان يعرفه جيداً، مثلما كان يعرف والده الذي كثيراً ما كان يذهب معه لتناول شراب الليمون في المقاهي الكائنة على طول النهر. مات العجوز مائير وترك الملحمة لابنه دافيد، رغم حداثة سنه، وهو فتى جسيم ذو كرش بارز، ووجه بشوش. سأله بيريرا وهو يتقدم منه: ماذا حصل يادافيد؟ أجاب دافيد وهو يمسح يديه المتسختين من الدهان بمريول الجزار: ترى بنفسك يادوتّور بيريرا. نعيش في عالم من السوقيين سيئي التربية، هم من فعلوا ذلك. سأل بيريرا: هل استدعيت البوليس؟ غمغم دافيد: حسناً، حسناً، دعك من هذا الكلام. ثم عاد لمسح الكتابات بالدهان الأبيض. اتجه بيريرا إلى مقهى أوركيديا، وجلس في الداخل، قبالة المروحة. طلب شراب ليمون وخلع عنه سترته. هل سمعت بما حدث، يادوتّور بيريرا؟ حملق بيريرا عينيه واستفهم: الملحمة اليهودية؟ أجاب مانويل وهو يذهب: أية ملحمة يهودية، هناك ماهو أسوأ.

طلب بيريرا عجة بالأعشاب وأكلها بهدوء. لاتوزّع الـ*لِشبَوا* قبل الساعة الخامسة، ولن يتمكن من قراءتها لأنه سوف يكون في القطار المتجه إلى كوامبرا. بوسعه أن يطلب شراء إحدى صحف الصباح، لكنه كان يشك بأن تشير الصحف البرتغالية إلى الحادث الذي يعنيه النادل. كانت هناك مجرد شائعات تسري من فم إلى آخر. ومن أجل معرفة مايجري، كان يجب الاستعلام في المقاهي أو الإصغاء للثرثرات. تلك كانت الوسيلة الوحيدة للاطلاع على الأحوال، وإلا

فشراء أية جريدة أجنبية من كشك للدخان في شارع أورو. لكن الصحف الأجنبية عندما تصل، تكون متأخرة ثلاثة أو أربعة أيام، بحيث يصير البحث عن صحيفة أجنبية غير مجدٍ. أفضل وسيلة، هي السؤال. لكن بيريرا لم يكن يرغب بطرح أي سؤال على أي شخص. كان فقط يريد الذهاب إلى حمامات الحمة، والاستمتاع ببضع أيام من الهدوء، والكلام مع صديقه البروفسور، سيلفا، وعدم التفكير بالشر في العالم. طلب كأساً آخر من شراب الليمون، ثم طلب حسابه، وخرج. توجه إلى البريد المركزي، وأرسل برقيتين، واحدة إلى الفندق في منطقة الحمة، لحجز غرفة، وواحدة لصديقه سيلفا. «أصل إلى كوامبرا في قطار المساء. إن استطعت الحضور لتأخذني بالسيارة، أكون ممتناً. صديقك بيريرا.»

عاد إلى بيته لتوضيب حقيبته. فكر أن بوسعه شراء بطاقة من المحطة مباشرة. كان لديه، على أية حال، متسع من الوقت، كما ادّعى.

9

حين وصل بيريرا إلى محطة كوامبرا، ادّعى بأن غروب الشمس على المدينة كان رائعاً. نظر إلى الرصيف من حوله، لكنه لم يجد صديقه سيلفا. فكر أن البرقية لم تصل، أو أن سيلفا غادر الحمة. لكنه حين دخل إلى بهو المحطة، رأى سيلفا، جالساً على مقعد ويدخن سيجارة. تأثر وانفعل للقائه. لقد مضى عليه زمن لابأس به دون أن يراه.عانقه سيلفا وأخذ منه حقيبته. خرجا وتوجها إلى السيارة. كان لدى سيلفا سيارة شيفروليه سوداء، مريحة وواسعة، ذات واجهة من الكروم اللامع.

بدت الطريق إلى الحمة، شديدة التعرج، تخترق سلسلة من التلال الغنية بالنباتات. فتح بيريرا النافذة، لأنه بدأ يشعر بقليل من الغثيان، وكان الهواء المنعش مفيداً له، كما ادّعى. أثناء الطريق، تبادلا قليلاً من الكلام. سأله سيلفا: كيف تتدبر أمورك؟ أجابه بيريرا: بينَ بينْ. سأله سيلفا: أتعيش وحدك؟. أجاب بيريرا: أعيش وحدي. قال سيلفا: في رأيي، أن هذا يسبب لك الأذى. عليك أن تجد امرأة تقاسمك العيش، وتدخل البهجة على حياتك. أفهم أن ترتبط بذكرى زوجتك، ولكنك لن تمضي بقية حياتك على هذه الذكرى. أجاب بيريرا: أنا عجوز، سمين جداً، وأعاني من علة في القلب. قال سيلفا: لستَ عجوزاً إطلاقاً، أنت في عمري، و فيما عدا ذلك، تستطيع أن

تتبع حميةً، وتأخذ إجازة، أن تفكر أكثر بصحتك،، قال بيريرا: دع عنك ذلك.

ادّعى بيريرا أن فندق الحمامات كان فاخراً. فيلّلا بيضاء ، وسط منتزه هائل. صعد إلى غرفته وغير بذته. ارتدى سترة فاتحة اللون وربطة عنق سوداء. كان سيلفا ينتظره في البهو وهو يرشف شراباً فاتحاً للشهية .سأله بيريرا إن كان قد رأى مديره. غمز له سيلفا بعينه وأجاب: إنه مايزال يتعشى بصحبة امرأة شقراء متوسطة العمر، من نزلاء الفندق، يبدو أنه عثر على صاحبة. قال بيريرا: هكذا أفضل، فهذا يجنبني الأحاديث الاعتيادية.

دخلا المطعم. كان عبارة عن قاعة من طراز القرن التاسع عشر، في سقفها فريسكات تمثل أكاليل زهور. كان المدير يتعشى على طاولة في الوسط بصحبة امرأة ترتدي ملابس السهرة. رفع رأسه، ورأى بيريرا. ارتسمت تعابير الدهشة على وجهه، وبيده أشار إليه أن يقترب. اقترب بيريرا، في حين جلس سيلفا إلى إحدى الطاولات. قال المدير: مساء الخير دوتّور بيريرا، لم أكن أتوقع رؤيتك هنا، هل تخليت عن عملك؟ قال بيريرا: إن الصفحة الثقافية صدرت اليوم، لاأعرف إن تسنى لك رؤيتها، فربما لم تصل الصحيفة إلى كوامبرا. فيها قصة لِ موباسان وزاوية تكفّلْتُ بتحريرها، بعنوان «حدث ذات يوم». على أية حال، لن أبقى هنا أكثر من يومين، وسأكون في لشبونة يوم الأربعاء، لكي أعد الصفحة الثقافية للسبت القادم. قال المدير لجليسته: عذراً ياسيدتي، أقدم لك دوتّور بيريرا، وهو أحد معاونيّ. وأضاف: السيدة ماريا دوفالي سانتارِس. حياها بيريرا بانحناءة من رأسه، ثم قال: سيدي المدير، كنت أريد أن أحدثك عن أمر. إن لم يكن لديك اعتراض، لقد وظفت شخصاً كمتدرب، مهمته هي مجرد مساعدتي على تحرير بيانات تأبينية مسبقة لكبار الكتّاب الذين قد يموتون بين اللحظة والثانية. قال

المدير بتعجب: أنا أتعشى هنا بصحبة سيدة لطيفة وحساسة، كنت أتحدث معها عن أمور ممتعة، وتأتي لتكلمني عن أشخاص على وشك الموت، يبدو هذا نقصاً في الحساسية من قبلك. ادّعى بيريرا أنه قال: اعذرني سيدي المدير، لم أشأ أن أفتح حديثاً مهنياً، ولكن علينا في الصفحات الثقافية، أن نتوقع موت هذا الفنان الكبير أو ذاك، وإذا مات أحدهم فجأةً، فإن كتابة رثاء له بين يوم وليلة، مشكلة. تذكرون، من جهة أخرى، أنه، منذ ثلاث سنين، عندما توفي ت. إ. لورانس[1] لم تتكلم عنه أية صحيفة برتغالية، في الوقت الملائم، ولم يرثوه إلا بعد أسبوع من وفاته، وإذا أردنا أن تكون صحيفتنا معاصرة، يجب أن نعرف كيف نلتصق بالحدث. علك المدير اللقمة التي كانت في فمه، ببطء وقال: حسناً، حسناً، دوتّور بيريرا، وأنا كنت قد تركت لك كامل الصلاحية للصفحة الثقافية. أريد فقط أن أعرف إن كان المتدرب سيكلفنا كثيراً، وإن كان شخصاً أهلاً للثقة. أجاب بيريرا: من هذا الجانب يبدو شخصاً يكتفي بالقليل، فهو شاب متواضع، ثم إن رسالته كانت عبارة عن بحث في موضوع الموت بجامعة لشبونة، من هنا فهو يستطيع الكتابة عن الموت. قام المدير بحركة قاطعة بيده، شرب جرعة من النبيذ وقال: اسمع دوتّور بيريرا، لاتعد إلى الحديث عن الموت، حباً بالله، وإلا فسوف تخرب علينا عشاءنا. وفيما يتعلق بالصفحة الثقافية، افعل مايبدو لك مناسباً، فقد أمضيت ثلاثين عاماً في تحرير صفحة المنوعات، والآن، طاب مساؤك وشهية طيبة.

مضى بيريرا إلى طاولته وجلس مقابل صديقه. سأله سيلفا إن كان يريد كأس نبيذ أبيض، أشار برأسه أن لا، نادى النادل وطلب كأساً من شراب الليمون، وشرح موقفه قائلاً: طبيب القلب قال لي بأن النبيذ يؤذيني. طلب سيلفا سمكة ترويت باللوز للغداء، وطلب بيريرا

(1) ت. إ. لورانس: هو توماس إدوارد لورانس، الملقب بـ لورانس العرب.

شريحة لحم أحمر وفوقه بيضة مسلوقة، على طريقة ستروغونوف. بدأا يأكلان بصمت، ثم، وفي لحظة معينة، سأل بيريرا سيلفا عن رأيه في كل ذلك. قال سيلفا: كل ماذا؟ قال بيريرا: كل مايحدث في أوروبا. رد سيلفا: آ، لاتهتم، نحن لسنا في أوروبا، نحن في البرتغال. ادّعى بيريرا أنه ألح قائلاً: نعم، وأضاف: ولكنك تقرأ الصحف وتسمع الراديو، وتعرف مايجري في ألمانيا وفي إيطاليا. إنهم أناس متعصبون يريدون إشعال العالم وإغراقه في الدماء. أجاب سيلفا: لاتشغل فكرك بذلك، إنهم بعيدون عنا. استأنف بيريرا: صحيح، ولكن أسبانيا ليست بعيدة عنا، إنها على بعد خطوتين، وأنت تعلم ماالذي يحدث في أسبانيا، إنها مذبحة، مع أنه كان هناك حكومة دستورية، كله بسبب خطأ رجل متزمت. قال سيلفا: أسبانيا أيضاً بعيدة، ونحن في البرتغال. قال بيريرا: بالتأكيد، ولكن في مكان غيرَ بعيدٍ من هنا، لاتسير الأمور على مايرام. رجال البوليس يتصرفون كما يحلو لهم و يقتلون الناس. هناك رقابات وملاحقات. إنها دولة متسلطة، الناس فيها لايساوون الكثير، والرأي العام لايساوي الكثير. تطلع سيلفا إليه ووضع شوكته. قال سيلفا: اصغِ إلي جيداً يابيريرا، هل مازلت تؤمن بالرأي العام؟ فلتعرفْ إذن أن الرأي العام شيء اخترعه الأنغلو–ساكسون. الانكليز والأمريكان هم الذين يغمروننا بالخراء، اعذرني على التعبير، لكن كيف نتبنى فكرة الرأي العام الخاصة بهم، دون أن يكون لنا نظامهم السياسي، ولا تقاليدهم! نحن لانعرف ماهي *النقابات*. نحن جنوبيون يابيريرا، نطيع ذلك الذي يصرخ بصوت أعلى من الجميع، ذلك الذي يأمر. اعترض بيريرا قائلاً: نحن لسنا جنوبيين، دمنا سلتي. قال سيلفا: لكننا نعيش في الجنوب، ومناخنا لايلائم أفكارنا السياسية: *دعه يعمل* دعه يمر. هكذا جُبلنا. ثم اسمعني جيداً، أريد أن أقول لك شيئاً، أنا أدرّس الأدب، وأجد نفسي في الأدب، وأنا بصدد إعداد نشرة

نقدية لشعرنا الغنائي الجوال، عن «*أغاني الصداقة*»[1]. لاأدري إن كنت تتذكرها، لقد درسناها في الجامعة. حسناً، كان الشبان يذهبون للحرب، وتبقى النساء في البيوت يبكين، وكان الشعراء الجوالون يلتقطون نحيبهن، كان الملك هو الذي يأمر، أتفهم؟ الزعيم هو الذي كان يأمر، وكنا دائماً بحاجة لزعيم، واليوم أيضاً نحتاج لزعيم. رد بيريرا: لكنني صحفي. قال سيلفا: وإذن؟ قال بيريرا: إذن يجب أن أكون حراً، وأن أُعلِم الناس بصورة صحيحة. قال سيلفا: لاأرى الصلة، فأنت لاتكتب مقالات سياسية، بل تهتم بالصفحة الثقافية. ترك بيريرا بدوره شوكته، أسند مرفقيه إلى الطاولة، وقال: أنت من يجب أن يسمعني جيداً، تخيل أن مارينيتي توفي غداً. تعرف من يكون مارينيتي؟ قال سيلفا: أعرفه بشكل غامض. قال بيريرا: حسناً، إنه شخص قذر، كانت بدايته عندما تغنى بالحرب، ودافع عن المذابح، إنه شخص إرهابي، حيّا السير نحو روما. نعم، مارينيتي شخص قذر، ويجب أن أستطيع أنا، أن أقول ذلك. قال سيلفا: اذهب إلى انكلترا، هناك تستطيع أن تقول كل مايحلو لك، وسيكون لك كثير من القراء.أنهى بيريرا آخر لقمة في طبقه، وقال: سأذهب إلى سريري، انكلترا بعيدة جداً. سأله سيلفا: ألاتريد تحلية؟ أنا تناسبني قطعة من الكعك. قال بيريرا: الحلويات تؤذيني، كما قال لي طبيب القلب، ثم إني تعب من السفر. شكراً على مجيئك إلى المحطة لإحضاري. طابت ليلتك وإلى الغد.

نهض بيريرا، وذهب دون أن يضيف شيئاً. ادّعى أنه يشعر بالتعب الشديد.

(1) في الشعر الغنائي البرتغالي الذي يعود للقرنين الخامس عشر والسادس عشر، هناك «أغاني الصداقة»، «أغاني الحب»، و«الأغاني الماجنة».

10

في اليوم التالي، نهض بيريرا في الساعة السادسة. ادّعى أنه لم يأخذ سوى قهوة، وأنه اضطر أن يلح كي يحصل عليها لأن خدمة الغرف لاتبدأ قبل السابعة. ثم قام بنزهة في البستان. الحمامات أيضاً تفتتح في السابعة، وفي تمام السابعة كان بيريرا أمام البوابة. لم يكن سيلفا هناك. عملياً، لم يكن هناك أي أحد، وشعر بيريرا بالراحة، كما ادّعى. قبل كل شيء، شرب كأسين من ماءٍ يعرف أن له رائحة البيض الفاسد، وأحس بغثيان غامض، وكذلك باضطراب في الأمعاء. تمنى أن يشرب كأس شراب ليمون طازج، لأن الطقس كان حاراً رغم أن النهار كان في أوله، لكنه فكر أنه لايستطيع خلط المياه المعدنية مع شراب الليمون. عندها توجه إلى الموضع الذي أقيمت فيه تجهيزات الحمامات حيث جعلوه يخلع ثيابه ويرتدي مئزراً أبيض اللون. سألته المستخدَمة: تريد حمام الوحل أم الاستنشاق؟ أجاب بيريرا: الاثنين. أجلسوه في حجرة فيها حوض من الرخام للاستحمام مليء بسائل كستنائي اللون. خلع بيريرا مئزره وغطس فيه. كان الوحل فاتراً ويعطي انطباعاً بالرخاء. في لحظة معينة، دخل مستخدم من مستخدمي الدار، وسأله أين عليه أن يدلكه. أجاب بيريرا أنه لايريد تدليكاً، ولايريد سوى الحمام، ويتمنى أن يُترَك في حاله بسلام. خرج من الحوض، أخذ حماماً بارداً، ارتدى مئزره

ثانيةً، وانتقل إلى الحجرات المجاورة حيث توجد مواضع تنبعث منها أبخرة الاستنشاق. أمام كل موضع، كان هناك أشخاص جالسون مسندين أكواعهم إلى الرخام، يستنشقون دفقات البخار الحار. وجد بيريرا مكاناً شاغراً وجلس فيه. راح يتنفس بعمق بضع دقائق، وغرق في أفكاره. جاءته صورة مونتيرو روسي، وكذلك، صورة زوجته، دون سبب واضح. لقد مضى عليه يومان دون أن يتكلم إلى صورتها، وندم بيريرا لأنه لم يحضرها معه. عندئذ نهض، توجه إلى قاعة الثياب، ارتدى ملابسه، عقد ربطة عنقه السوداء، خرج من مبنى الحمامات المعدنية وعاد إلى الفندق. في صالة المطعم، رأى صديقه سيلفا الذي كان يتناول فطوراً وافراً، مع الفطائر والقهوة بالحليب. اقترب بيريرا من سيلفا، حياه، وقال له إنه أخذ حماماً بالمياه المعدنية، وأضاف: يوجد قطار إلى لشبونة في حوالى منتصف النهار، سأكون ممتناً إن أوصلتني إلى المحطة، وإن كنت لاتستطيع فسوف آخذ سيارة الفندق. سأله سيلفا: كيف ذلك، ترحل الآن؟ وأنا الذي كنت آمل أن أمضي يوماً أو يومين بصحبتك. اعذرني، كذب بيريرا، إنما يجب أن أكون في لشبونة هذا المساء، وعلي غداً أن أكتب مقالاً هاماً. ثم تعرف أنني لاأحب كثيراً أن أترك مكتب التحرير لبوابة البناء، يفضّل أن أذهب. أجاب سيلفا: كما تريد، سأقلّك إلى المحطة.

لم يتبادلا أدنى كلمة أثناء الطريق. ادّعى بيريرا أن سيلفا كان يبدو غاضباً منه، لكنه لم يفعل شيئاً لتخفيف الموقف. فكر قائلاً لنفسه، هكذا أفضل، هكذا أفضل. وصلا إلى المحطة حوالى الساعة الحادية عشرة والربع ، كان القطار ينتظر على الخط الحديدي. صعد بيريرا، ومن النافذة، لوح بيده على سبيل التحية. حياه سيلفا بحركة واسعة من ذراعه ومضى. جلس بيريرا في مقطورة كانت فيها سيدة تقرأ كتاباً.

كانت امرأة جميلة، شقراء، أنيقة، بساق خشبية. جلس بيريرا قريباً من جهة الممشى، كيلا يزعجها، لأنها كانت تجلس قرب النافذة. لاحظ أنها تقرأ كتاباً بالألمانية لِ توماس مان. أثار الأمر فضوله، لكنه لم يقل شيئاً في الحال، قال فقط، طاب يومك، سيدتي. تحرك القطار في الحادية عشرة والنصف. بعد دقائق مر موظف كي يأخذ الحجوز لأجل مقطورة المطعم. حجز بيريرا مكاناً له لأنه كان يحس أن معدته مقلوبة من الغثيان، ويحتاج لأكل شيء ما، كما ادّعى. صحيح أن المشوار لم يكن طويلاً، لكنه قد يصل متأخراً إلى لشبونة، ولم يكن يرغب أن يبحث عن مطعم في هذا الطقس الحار.

حجزت المرأة ذات الساق الخشبية مكاناً لنفسها أيضاً في مقطورة المطعم. لاحظ بيريرا أنها تتكلم برتغالية جيدة، مع لكنة أجنبية خفيفة، الأمر الذي زاد من فضوله، كما ادّعى، وأمدّه بالشجاعة لكي يدعوها. قال: سيدتي، لاأريد أن أبدو مزعجاً، ولكن نظراً لكوننا رفيقي سفر، وكوننا حجزنا في المطعم، كلينا، أود أن أعرض عليك أن نأكل على الطاولة نفسها، حيث يمكننا أن نتحدث قليلاً، وربما نشعر أننا أقل وحدة. شيء يدعو للكآبة أن يتناول الإنسان طعامه بمفرده، خاصةً في قطار. اسمحي لي أن أقدم نفسي، أنا الـ دوتّور بيريرا، مدير الصفحة الثقافية في *لِشبُوا*، صحيفة للأخبار الخفيفة تصدر في العاصمة. ابتسمت المرأة ذات الساق الخشبية ابتسامة عريضة ومدت له يدها. قالت: تشرفت. أدعى دلغادو إنجبورغ، أنا ألمانية ولكن من أصل برتغالي. جئت إلى البرتغال لأتعرّف على أصولي.

مر المستخدم وهو يهز جرسه داعياً للغداء. نهض بيريرا متيحاً للسيدة دلغادو أن تتقدمه. ادّعى أن الشجاعة لم تواته كي يقدم لها ذراعه، لأنه فكر أن امرأة بساق من خشب، قد تجد في حركة من هذا النوع مايجرح كبرياءها. لكن السيدة دلغادو كانت تتحرك برشاقة

كبيرة رغم ساقها الاصطناعية، وسبقته في المشى. كانت مقطورة المطعم مجاورة لمقطورتهما، فلم يحتاجا للسير طويلاً. جلسا إلى طاولة في القسم اليساري من المقطورة. عقد بيريرا فوطته حول عنقه وأحس أن عليه أن يطلب العذر عن سلوكه. قال: اعذريني، إني ألطخ قميصي دوماً عندما آكل، تقول مدبرة بيتي بأنني أسوأ من الأطفال. آمل ألا أبدو لك بلدياً جداً. كانت مناظر وسط البرتغال اللطيفة تتتابع عبر النافذة: تلال خضراء بشجر الصنوبر، وقرى بيضاء. من وقت لآخر كانوا يرون الكروم، كما يظهر بعض الفلاحين مثل نقاط سوداء تضفي على المشهد مزيداً من الجمال. سأل بيريرا: أتحبين البرتغال؟ أجابت السيدة دلغادو: نعم، جداً، لكن لاأظن أني سأبقى فيها طويلاً، زرت أقاربي القاطنين في كوامبرا، تعرفت على جذوري، لكن هذا البلد لم يُخلق للشعب الذي أنتمي إليه، أنتظر تأشيرة السفارة الأمريكية، خلال وقت قريب سأرحل إلى الولايات المتحدة، هذا ماآمله على الأقل. ظن بيريرا أنه فهم وسأل: أنت يهودية؟ أكدت السيدة دلغادو: أنا يهودية، وأوروبا في هذه الأوقات ليست مكاناً مناسباً لأفراد شعبي، وبشكل خاص ألمانيا، هنا كذلك لايوجد تعاطف كبير، أدرك ذلك حين أقرأ الصحف، ربما كانت الصحيفة التي تعمل فيها تشكل استثناءً، رغم أنها كاثوليكية جداً، كاثوليكية زيادةً عن اللزوم لمن ليس كذلك. ادّعى بيريرا أنه قال: أنا كاثوليكي أيضاً، لكن بطريقتي الخاصة، ولسوء الحظ ، قامت عندنا محاكم التفتيش، وهذا لايشرفنا، لكني أنا مثلاً، لاأومن بقيامة الجسد، لاأدري إن كان هذا يعني شيئاً. أجابت السيدة دلغادو: لاأعرف ماذا يعني، لكني أظن أنه لايعنيني. قال بيريرا: لاحظت أنك تقرئين كتاباً لـ توماس مان، وهو كاتب أحبه جداً. قالت السيدة دلغادو: هو أيضاً ليس سعيداً بما يجري في ألمانيا، لايمكنني حقاً القول إنه سعيد بذلك. وافق بيريرا قائلاً: أنا أيضاً لست سعيداً بما

يجري في البرتغال. شربت السيدة دلغادو جرعة من الماء المعدني وقالت: افعل شيئاً إذن. أجاب بيريرا: أفعل شيئاً؟ ولكن ماذا؟ قالت السيدة دلغادو: أنت رجل مثقف، قُلْ ما يحدث في أوروبا، عبِّر بحرية عن فكرك، افعل شيئاً. ادّعى بيريرا أن لديه الكثير مما يمكن أن يقوله. تمنى أن يجيب أنّ من يرأسه هو أحد رجال النظام، وأنّ هناك النظام وبوليس النظام ورقابة النظام فيما بعد، وأنّ السكوت مفروض على الجميع في البرتغال، وأنّه في نهاية المطاف، لايمكن للناس التعبير بحرية عن آرائهم، وأنّه يمضي أيامه في حجرة صغيرة بائسة في شارع رودريغو دا فونسيكا، بصحبة مروحة تشخر كالمصاب بالربو، مراقَباً من قبل بوابة ربما كانت مخبرة للبوليس. ألا أن بيريرا لم يقل شيئاً من كل هذا، قال فقط: سأفعل مابوسعي، سيدة دلغادو، ولكنه ليس من السهل على شخص مثلي أن يفعل مابوسعه في بلد كهذا البلد، تعرفين، أنا لست توماس مان، لست سوى المدير الغامض للصفحة الثقافية في صحيفة منوعات متواضعة. أمتدح بعض الكتاب المعروفين، أترجم قصصاً فرنسية من القرن التاسع عشر، ليس بالإمكان عمل المزيد. أجابت السيدة دلغادو: أفهم، ولكن ربما كان بالإمكان فعل كل شيء، يكفي أن تتوافر الإرادة. نظر بيريرا إلىالخارج، عبر النافذة وتنهد. كانوا قريبين من فيلا فرانكا، فقد كان يرى نهر تاج الطويل كالثعبان. فكر بيريرا أن هذه البرتغال الصغيرة، هي بلد جميل ببحره ومناخه، لكن كل شيء فيه صعب جداً. قال: سيدة دلغادو، أظن أننا سنصل إلى لشبونة خلال وقت قصير، نحن في فيلا فرانكا، إنها مدينةٌ شغّيلةٍ شرفاء، مدينةُ عمال. نحن أيضاً في هذا البلد الصغير، لدينا معارضتنا، إنها معارضة تعمل بصمت، ربما لأنه ليس لدينا توماس مان، لكن هذا هو كل مانستطيع فعله، والآن، ربما من الأفضل أن نعود إلى مقطورتنا لإعداد الحقائب. أسعدني التعرف عليك، وقضاء

هذا الوقت القصير معك. اسمحي لي أن أقدم لك ذراعي، لكن لاتفسري الأمر على سبيل المساعدة، بل الملاطفة، لأننا في البرتغال، كما تعرفين، شديدو الملاطفة.

نهض بيريرا وقدّم ذراعه للسيدة دلغادو. تقبّلث المبادرة بابتسامة خفيفة ونهضت عن الطاولة الضيقة، ليس بدون شيء من المشقة. سدّد بيريرا الحساب وترك بقشيشاً. خرج من مقطورة المطعم بينما السيدة دلغادو تمسك بذراعه. كان يشعر بالفخر والاضطراب في الوقت نفسه، لكنه لم يكن يعرف لماذا، كما ادّعى.

11

ادّعى بيريرا أنه عندما وصل، الثلاثاء التالي إلى مكتب التحرير، التقى البوابة التي أعطته رسالة مسجّلة. سلمته سيليست الرسالة وقالت له بلهجة ساخرة: نقلتُ تعليماتك لساعي البريد لكنه لايستطيع المرور ثانيةً، لأن عليه أن يجول في الحي بأسره، ولهذا السبب ترك لي الرسالة. أخذها بيريرا، شكر البوابة بحركةٍ من رأسه، ونظر إن كان هناك اسم مرسل. لحسن الحظ، لم يكن هناك أي اسم، هذا يعني أن سيليست بقيت خائبة. إلا أنه تعرّفَ في الحال على الحبر الأزرق السماوي الذي يستخدمه مونتيرو روسي، وعلى خطه المتكلف. دخل المكتب وشغّل المروحة، ثم فتح الرسالة. كانت تقول: «عزيزي الـ دوتّور بيريرا، أجتاز، لسوء الحظ، مرحلة سيئة جداً، وربما أحتاج للكلام معك. الأمر ملحّ، لكني أفضل عدم المرور إلى مكتب التحرير. سأنتظرك مساء الثلاثاء في الثامنة والنصف، في مقهى أوركيديا. أتمنى أن أتعشى معك وأن أقص عليك مشاكلي. مع أملي بقدومك، المخلص لك، مونتيرو روسي.»

ادّعى بيريرا أنه كان ينوي أن يكتب مقالاً لزاوية «حدث ذات يوم» ، مهدىً إلى ريلكه، الذي مات في عام ستة وعشرين، والذي مضى بالتالي على اختفائه، اثنا عشر عاماً. إلا أنه راح يترجم قصة لبلزاك، فاختار قصة *أونورين*، وهي قصة عن التوبة، وكان يفكر

بنشرها مسلسلةً، على ثلاث أو أربع حلقات. كان بيريرا يعتقد، دون أن يعرف لماذا، أن هذه القصة التي تحكي عن التوبة، ستكون بمثابة رسالة في زجاجة، لأحدٍ ما، سوف يتلقاها. فهناك كثير من الأشياء التي يمكن التوبة عنها، وكان يجب نشر قصة عن التوبة. وتلك هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها توجيه رسالة لمن يريد أن يسمع الرسالة. وهكذا أخذ قاموسه، أطفأ المروحة، وعاد إلى بيته.

حين وصل بسيارة الأجرة إلى أمام الكاتدرائية، كان الطقس حاراً بشكل فظيع، فخلع بيريرا ربطة عنقه ووضعها في جيبه. صعد المنحدر الذي يوصله إلى بيته بمشقة، فتح باب المبنى، وجلس فوق إحدى الدرجات. كان تنفسه متقطعاً. بحث في جيبه عن حبة من دواء القلب، الذي وصفه له الطبيب، وابتلعها دون ماء. مسح عرقه، ارتاح، ابترد في المدخل المظلم، ثم دخل إلى شقته. لم تعِدّ له البوابة شيئاً للأكل، فقد سافرت إلى منزل أقربائها في سيتوبال، ولن تعود قبل شهرأيلول، مثلما تفعل كل عام. كان ذلك يحبطه في الواقع، لأنه لم يكن يحب أن يكون وحيداً، وحيداً تماماً، دون أي إنسان يهتم به. مرأمام صورة زوجته وقال لها: أعود خلال عشر دقائق. ذهب إلى الغرفة، خلع ملابسه واستعد للاستحمام. أوصاه الطبيب ألا يأخذ حماماً شديد البرودة، لكنه كان يشعر بحاجة لذلك. ملأ حوض الحمام بالماء البارد وغطس فيه. وهو في الماء، داعب بطنه طويلاً. قال لنفسه: كانت حياتك مختلفة في الماضي يابيريرا. جفف نفسه، ارتدى بيجاما، وذهب إلى المدخل، توقف أمام صورة زوجته وقال لها: سأرى مونتيرو روسي هذا المساء. لاأدري لماذا لاأصرفه، ولا لماذا لاأرسله كي يجرب نفسه في مكان آخر. لديه مشاكل ويريد أن يخبرني عنها. هذا شيء أفهمه. ما قولكِ؟ ماذا يفترض بي أن أفعل؟ ابتسمت له صورة زوجته ابتسامة بعيدة. قال بيريرا، حسناً، الآن سأنام قليلاً، بعدها أرى ماذا يريد هذا الشاب. وذهب لينام.

ادّعى بيريرا أنه حلمَ أثناء نومه بعد ظهيرة ذلك اليوم، حلماً جميلاً جداً، يعود لأيام فتوته، لكنه يفضل ألا يكشف عنه، لأنه يدّعي أنه يجب عدم الكشف عن الأحلام. يقر فقط أنه كان مسروراً، وأن الوقت كان في الشتاء، على شاطئ في الشمال، بَعدَ كوامبرا، ربما في الغرانجا، وكان بصحبته شخص لايريد أن يفصح عن هويته. المهم أنه استيقظ بمزاج جيد، لبس قميصاً بأكمام قصيرة، ولم يضع ربطة عنق. أخذ بالمقابل سترة قطنية خفيفة، دون أن يرتديها، مفضلاً أن يحملها على ذراعه. كان المساء حاراً. ولحسن الحظ هبّت بعض النسائم. خطر له في الحال أن يذهب سيراً على قدميه حتى مقهى أوركيديا، لكن ذلك بدا له فيما بعد، ضرباً من الجنون. مع ذلك نزل حتى تيريرو دو باشو، وأنعشته النزهة. هناك أخذ الترام إلى ألكسندر هيركولانو. كان مقهى أوركيديا شبه مقفر، لم يكن مونتيرو روسي هناك، ولكنه، والحق يقال، هو الذي وصل مبكراً على الموعد. جلس بيريرا إلى طاولة صغيرة في الداخل، قرب المروحة، وطلب شراب ليمون. حين جاء النادل، سأله : ماالأخبار اليوم يا مانويل؟ أجاب النادل: من أين لي أن أعرف ، إذا كنت أنت، دوتّور بيريرا، الذي تعمل صحفياً، لا تعرف ما الأخبار. أجاب بيريرا: كنت في حمامات الحمة، ولم أقرأ الصحف، هذا فضلاً عن أن المرء لايمكنه أن يعرف شيئاً أبداً من خلال الصحف. وأفضل شيء هو جمع الأخبار مشافهةً، وهذا ما يجعلني أسألك أنت، يا مانويل. قال مانويل: أشياء لاتصدّق، يا دوتّور بيريرا، أشياء لاتصدّق. ثم مضى.

في تلك اللحظة، دخل مونتيرو روسي. كان يتقدم بهيئة مضطربة، وهو ينظر حوله بحذر. لاحظ بيريرا أنه كان يرتدي قميصاً جميلاً بلون أزرق سماوي، له ياقة بيضاء. فكر بيريرا لحظة، لقد اشتراه بنقودي، لكنه لم يتسنَّ له الوقت كي يفكر بالسؤال، لأن مونتيرو روسي رآه وتوجه إليه. تصافحا وقال بيريرا: اجلس.

جلس مونتيرو روسي إلى الطاولة ولم يقل شيئاً. قال بيريرا: حسناً، ماذا تريد أن تأكل؟ هنا لايقدمون سوى العجة بالأعشاب، وسَلَطات الأسماك. قال مونتيرو روسي: آخذ طبقَيْ عجة بالأعشاب، بطيبة خاطر. اعذرني إن بدوت وقحاً، ولكني اليوم لم أتناول غدائي. طلب بيريرا ثلاثة أطباق عجة بالأعشاب، ثم قال: الآن احكِ لي عن مشاكلك، فقد كانت هذه هي الكلمة التي استخدمتها في الرسالة. أعاد مونتيرو روسي خصلة الشعر التي كانت تنزل على جبينه، إلى مكانها، وادّعى بيريرا أن تلك الحركة كانت ذات تأثير كبير عليه. قال مونتيرو روسي وهو يخفض صوته: حسناً، لدي متاعب يادوتّور بيريرا، إنها الحقيقة. جاء النادل بأطباق العجة، فغيّر مونتيرو روسي: الحديث وقال: يالهذا الحر. تكلما عن الطقس أثناء وجود النادل بجانبهما، وقال بيريرا إنه كان في حمامات بوشاكو المعدنية، وأن المناخ كان هناك لطيفاً فعلاً، فوق الهضاب، بفضل خُضرَة المنتزه. غادرهما النادل فسأل بيريرا: ماالموضوع؟ قال مونتيرو روسي: لاأعرف من أين أبدأ، لدي متاعب، هذا واقع. قطع بيريرا قسماً من العجة بسكينه وسأل: متاعب لها صلة بـ مارتا؟

ماالذي دعا بيريرا لطرح هذا السؤال؟ هل لأنه كان يعتقد أن مارتا تستطيع أن تسبب المتاعب لهذا الشاب، أم لأنه وجدها شديدة المرح ونزقة جداً، أم لأنه كان يريد أن يكون كل شيء مختلفاً، وأن يكونوا في فرنسا أو انكلترا، حيث تستطيع الشابات المرحات والنزقات أن يقلن كل ما يردن قوله؟ ليس بيريرا في وضع يمكِّنُهُ من الإجابة عن هذا السؤال، لكن المهم هو أنه سأل: هل لهذا علاقة بمارتا؟ أجاب مونتيرو روسي بصوت منخفض: جزئياً نعم. لكني لاأستطيع مع ذلك تحميلها الخطأ. فلديها أفكارها، وهي أفكار قوية جداً. سأل بيريرا: إذن؟ أجاب مونتيرو روسي: إذن ، الذي حدث أن ابن عمي جاء. أجاب بيريرا: لايبدو لي هذا أمراً خطيراً جداً، كلنا لدينا أبناء عم. قال مونتيرو روسي بما يشبه الهمس: لكن ابن عمي

جاء من أسبانيا، وهو يشكل جزءاً من أحد الألوية، ويقاتل إلى جانب الجمهوريين. جاء إلى البرتغال لكي يجند متطوعين برتغاليين، لتشكيل لواء أممي. لا أستطيع أن أنزله في بيتي، فلديه جواز سفر أرجنتيني وواضح عن بعد كيلومترات، أنه جواز مزور. لاأعرف أين أنزله، أين أُخفيه. بدأ بيريرا يشعر أن شبكة من خيوط العرق تسيل على طول ظهره، لكنه احتفظ بهدوئه. سأل وهو مستمر في أكل عجته: ثم ماذا؟ قال مونتيرو روسي: ثم إني قد أحتاج إليك. أحتاج أن تهتم به، دوتّور بيريرا، أن تجد له مكاناً بعيداً عن الأنظار، لا يهم كثيراً أن يكون سرياً، لكن المهم أن يكون له مكان، لأني لاأستطيع إبقاءه في المنزل، إذ قد تكون لدى البوليس شكوك بسبب مارتا، وقد أكون مراقَباً أيضاً. سأل بيريرا ثانية: ثم ماذا؟ قال مونتيرو روسي: أنت لاأحد يشك بك. سيبقى هنا يوماً أو يومين، الوقت اللازم للاتصال بالمقاومة، ثم سيعود إلى أسبانيا. يجب أن تساعدني، يادوتّور بيريرا، يجب أن تجد له مأوى.

أنهى بيريرا أكل عجته، أشار للنادل، وطلب كأساً آخر من شراب الليمون. قال: أنا منذهل من وقاحتك، لاأدري إن كنت تدرك ماتطلبه مني الآن. ثم ماالذي أستطيع أن أجده؟ قال مونتيرو روسي: غرفة للإيجار، نزلاً، مكاناً لا يدققون فيه كثيراً في جوازات السفر. لا بد أنك بعلاقاتك الكثيرة، تعرف أمكنة من هذا النوع.

فكر بيريرا بكل علاقاته. بلى، ألم يعرف أحداً من جميع تلك العلاقات؟ كان يعرف الأب أنطونيو الذي لم يكن بمقدوره أن يدسه في مشكلة من هذا النوع، كان يعرف صديقه سيلفا، الذي كان في كوامبرا، والذي لم يكن يستطيع الاعتماد عليه، ثم البوابة التي في شارع رودريغو دا فونسيكا، التي ربما كانت مخبرة للبوليس. لكنه فكر فجأةً بِـ نزْلٍ صغير في الـ غراشا، فوق القصر الذي كان يلتقي فيه الأزواج السريون، حيث لم يكن يُسأل عن جواز سفر أحد.

وبيريرا يعرفه لأن صديقه سيلفا طلب منه مرة أن يحجز له غرفة في مكان سري، ليقضي الليل فيه بصحبة سيدة لاتستطيع أن تعرِّض نفسها لفضيحة. هكذا: سأهتم بالأمر غداً صباحاً، ولكن إياك أن ترسل ابن عمك، وإياك خصوصاً أن تصحبه إلى مكتب التحرير، بسبب البوابة، أحضره إلى بيتي غداً صباحاً في الحادية عشرة، سأعطيك العنوان، ولكن لاهواتف، من فضلك، وحاول أن تكون موجوداً أنت أيضاً، قد يكون ذلك أفضل.

لماذا قال بيريرا ذلك؟ هل لأن مونتيرو روسي كان يسبب له الألم؟ هل لأنه كان في الحمامات المعدنية، وتحدث بطريقة مخيبة مع صديقه سيلفا؟ أم لأنه قابل السيدة في القطار، وقالت له إنه، رغم كل شيء، يجب أن يفعل شيئاً؟ لايعرف بيريرا السبب، هكذا يدّعي. يعرف فقط أنه أدرك أنه وضع نفسه في موقف قذر، وعليه أن يكلم أحداً عن ذلك. ولكنه لم يجد أحداً، ففكر أن يكلم صورة زوجته بالأمر حين يعود إلى بيته. وهذا مافعله بالضبط، كما ادّعى.

12

ادّعى بيريرا أنه في تمام الحادية عشرة، طُرق الباب. كان بيريرا قد تناول فطوره، فقد استيقظ باكراً، وأعد إبريقاً من شراب الليمون، مملوءاً بمكعبات الثلج، على طاولة غرفة الطعام. دخل مونتيرو روسي أولاً، بهيئة التخفي، وهمهم بـ صباح الخير. أغلق بيريرا الباب محتاراً بعض الشيء، وسأله إن لم يكن ابن عمه معه. بلى إنه هنا، لكنه لايريد الدخول في الحال، وأرسلني قبله لأرى. سأل بيريرا مستثاراً: لترى ماذا؟ أتلعبان لعبة الشرطة واللصوص، أم تظنان أن الشرطة بانتظاركما؟ أجاب مونتيرو روسي معتذراً: لا، ليس الأمر كذلك، المشكلة أن ابن عمي شديد الارتياب، تعرف أنه ليس في وضع سهل، إنه هنا لأجل مهمة حساسة، جواز سفره أرجنتيني، ولايعرف أين يجد مأوى. لقد قلت لي هذا بالأمس، رد بيريرا، والآن نادِهِ، لو سمحت، لقد مللت من هذه الحماقات. فتح مونتيرو روسي الباب وقام بإشارة تعني دعوةً للدخول. قال بالإيطالية: تعال يا برونو، كل شيء تمام.

كان الرجل الذي دخل، قصيراً ونحيلاً. وشعره مقصوصاً على شكل فرشاة، وكان له شارب أشقر صغير، ويرتدي سترة بلون أزرق سماوي. قال مونتيرو روسي: دوتّور بيريرا، أقدم لك ابن عمي برونو روسي، لكنه في جواز السفر يدعى برونو لوغونيس، لذا

من الأفضل أن تدعوه دائماً لوغونيس. سأل بيريرا: بأية لغة يجب أن نتكلم؟ هل يعرف ابن عمك البرتغالية؟ قال مونتيرو روسي: لا، لكنه يعرف الأسبانية.

أجلسهما بيريرا في غرفة الطعام وقدم لهما شراب الليمون. لم يقل السيد برونو روسي شيئاً، اكتفى بالنظر حوله بهيئة حذرة. من بعيد، سُمعت صافرة سيارة الإسعاف. تشنج برونو روسي وذهب إلى النافذة. قال بيريرا لِمونتيرو روسي، قل له أن يبقى هادئاً. هنا لسنا في أسبانيا، وهذه ليست الحرب الأهلية. عاد برونو روسي إلى الجلوس وقال بالأسبانية: *عذراً للإزعاج، لكني هنا لأجل القضية الجمهورية*. قال بيريرا بالبرتغالية: اسمع ياسيد لوغونيس، سأتكلم ببطء لكي تفهمني، أنا لاأهتم لا بالقضية الجمهورية ولا بالقضية الملكية، أنا أدير الصفحة الثقافية في صحيفة منوعات، وهذه الأشياء لا تدخل في نطاق مشهدي الكلي، سأجد لك مأوىً هادئاً، لاأقدر أن أفعل المزيد، واحذر جيداً من أن تبحث عني ، لأني لا أريد أن يكون لي صلة لا بِكَ، ولابقضيتك. توجه برونو روسي إلى ابن عمه وقال له بالإيطالية: ليس هذا كما وصفتَه لي، كنت أتوقع أن ألتقي برفيق. فهم بيريرا وأجاب: أنا لست رفيق أحد، أعيش وحدي وأحب أن أكون وحدي، رفيقي الوحيد هو نفسي. لا أعلم إن كنت قد أوضحت موقفي جيداً، ياسيد لوغونيس، بما أن هذا هو اسمك في جواز السفر. نعم، نعم، قال مونتيرو روسي، شبه متلعثم، لكن الواقع، هو هذا، إننا بحاجة لعونك ولتفهمك، لأنه يلزمنا نقود. قال بيريرا: أفصِح بصورة أفضل. قال مونتيرو روسي: حسناً، هو لايملك قرشاً واحداً، وإذا طلبوا الأجرة مقدَّماً في الفندق، فلن نستطيع أن ندفع، في الوقت الحالي، أما لاحقاً، فسأهتم أنا نفسي بالأمر، أو بالأحرى إن مارتا هي التي ستهتم بالأمر، إنها مسألة دَيْن فقط.

في تلك اللحظة نهض بيريرا، كما ادّعى، اعتذر وقال: صبراً، أحتاج أن أفكر بالموضوع قليلاً، أستأذنكما دقيقة. تركهما بمفردهما في غرفة الطعام، وذهب إلى المدخل. توقف أمام صورة زوجته وقال لها: اسمعيني، ليس لوغونيس هو من يقلقني كثيراً، بل مارتا، وحسب اعتقادي، هي المسؤولة عن هذه القصة. مارتا هي صديقة مونتيرو روسي، الفتاة ذات الشعر النحاسي، أظن بأنني كلمتك عنها، هي التي جرَّت مونتيرو روسي إلى هذه الورطة، أنا واثق من ذلك، وهو ينقاد لها لأنه عاشق. علي أن أحذِّره، ألا ترين ذلك؟ ابتسمت له صورة زوجته ابتسامة بعيدة، واعتقد بيريرا أنه فَهِمَ. عاد إلى غرفة الطعام وسأل مونتيرو روسي: لماذا مارتا؟ ماعلاقة مارتا بالأمر؟ قال مونتيرو روسي متلعثماً وقد احمرَّ قليلاً: حسناً، ذلك أنّ مارتا تملك مالاً كثيراً، هكذا ببساطة. قال بيريرا: اصغِ إلي، ياعزيزي مونتيرو روسي، أظن أنك أوقعت نفسك في ورطة بسبب شابة جميلة، ولكن افهمني، أنا لست أباك ولاأريد أن أتصرف إزاءك بطريقة أبوية قد تفسرها على أنها عقلية أبوية. أريد فقط أن أقول لك شيئاً: كن منتبهاً. قال مونتيرو روسي: نعم، أنا منتبه، ولكن ماذا عن الدَّين؟ أجاب دوتّور بيريرا: هذه مسألة سنجد لها حلاً، ولكن لماذا علي أنا بالذات أن أعطي نقوداً مقدَّماً؟ قال مونتيرو روسي وهو يسحب من جيبه ورقة مدها إلى بيريرا: انظر دوتّور بيريرا، لقد كتبت مقالاً وسأكتب مقالينْ آخرينْ الأسبوع القادم. سمحت لنفسي أن أكتب مادةً لزاوية «حدث ذات يوم» عن دانونسيو، وضعتُ فيها القلب، لكنني وضعت العقل أيضاً، مثلما نصحتني، وأعِدُك أن المواد القادمة ستكون عن كاتبين كاثوليكيين، مثلما طلبت.

ادّعى بيريرا أنه شعر مرة أخرى بقليل من الاستفزاز. أجاب: اسمعني، ليس الأمر أنني أريد كتّاباً كاثوليكيين بأي ثمن، ولكن باعتبارك كتبت بحثاً عن الموت، فربما تستطيع أن تفكر أكثر قليلاً

بالكتّاب الذين اهتموا بهذه المسألة، أو اهتموا بالروح، وأنت، على العكس، تجلب لي مديحاً لكاتب دنيوي مثل دانونسيو، الذي ربما كان شاعراً جيداً، لكنه بدد حياته في التفاهات. لاأعلم إن كنت واضحاً بشكل جيد. الناس العابثون لايلقون الإعجاب من صحيفتي، أو على الأقل لايلقون إعجابي أنا. قال مونتيرو روسي: فهمت الرسالة تماماً. حسناً، أضاف بيريرا، والآن لنذهب إلى هذا النزل الصغير، لقد وجدت نزلاً في الـ غراشا، لايسبب أصحابه المشاكل. سأدفع المبلغ المقدّم إذا طلبوه، لكنّي أنتظر على الأقل مقالَيْ تأبين آخرَيْن، ياعزيزي مونتيرو روسي، وسيكون ذلك راتبك عن الخمسة عشر يوماً. قال مونتيرو روسي: دوتّور بيريرا، أنا كتبت مادة «حدث ذات يوم» عن دانونسيو، لأني، الأسبوع الماضي اشتريت الـ *لِشبُوَا* ورأيت أن فيها زاوية بعنوان «حدث ذات يوم». لم تكن الزاوية موقعة، لكني أظن أنك أنت من يحررها، فإن أردت مساعدة، أنا مستعد أن أقوم بها بكل طيبة خاطر، أتمنى أن أكتب زاوية من هذا النوع، وهناك الكثير من الكتّاب الذين أستطيع الكتابة عنهم، وبما أنها زاوية غير موقعة فلن يكون هناك ماتجازف به. ادّعى بيريرا أنه قال: لماذا، ألديك متاعب؟ أجاب مونتيرو روسي: نعم بعض المتاعب، كما ترى، ولكنك إذا أردت التوقيع باسم مستعار، خطر لي اسم، ما قولك باسم روكسي؟ قال بيريرا: يبدو لي اسماً حسن الاختيار. رفع الأشياء عن الطاولة، وضع إبريق شراب الليمون في الثلاجة، ثم لبس سترته وقال: حسناً، هيا بنا.

خرجوا. وفي الساحة الصغيرة أمام المبنى، كان عسكري ينام ممدداً على أحد المقاعد. اعترف بيريرا أنه لن يستطيع أن يصعد كل المنحدر سيراً على قدميه، لهذا انتظروا سيارة أجرة. ادّعى بيريرا أن الشمس كانت محرقة، وأن النسيم توقف. مرت سيارة أجرة ببطء، وأوقفها بيريرا بحركة من ذراعه. لم يتكلموا أثناء الطريق. نزلوا

مقابل صليب من الغرانيت، يرعى كنيسة صغيرة. دخل بيريرا النزل، لكنه نصح مونتيرو روسي بالبقاء خارجاً. اصطحب برونو روسي معه وقدمه للمستخدم، الذي كان عجوزاً قصيراً يرتدي نظارات سميكة، ويغالب النعاس وراء الكوة. قال بيريرا: لدي هنا صديق أرجنتيني، إنه السيد برونو لوغونيس، هاهو جواز سفره، لكنه يود التستر. هوهنا لأسباب عاطفية. خلع العجوز نظارته وقلّب السجل. هناك شخص اتصل هذا الصباح كي يحجز مكاناً، أهو أنت؟ نعم، أنا، أكد بيريرا. قال العجوز القصير: لدينا غرفة لاثنين دون حمام، لكني لاأعرف إن كانت تناسب السيد. قال بيريرا: تناسب بشكل ممتاز. قال العجوز: يجب دفع مبلغ مقدم، كما تعرف. تناول بيريرا حافظة نقوده، وسحب منها ورقتين. قال: هذه أجرة ثلاثة أيام مقدماً، والآن طاب يومك. حيا برونو روسي لكنه فضل ألا يشد على يده، لأن هذه الحركة بدت له إفراطاً في الحميمية. قال له: إقامة طيبة.

خرج وتوقف أمام مونتيرو روسي، الذي كان ينتظر جالساً على حافة البحرة. قال له: تعال إلى مكتب التحرير غداً. سأقرأ مقالك اليوم، هناك أشياء يجب أن نتكلم عنها. قال مونتيرو روسي: إنه في الحقيقة... سأل بيريرا: في الحقيقة ماذا؟ قال مونتيرو روسي: تعرف، أنه نظراً لما وصلت إليه الأمور، كنت أفكر أنه من الأفضل أن نتقابل في مكان هادئ، ربما في بيتك. قال بيريرا: موافق، ولكن ليس في بيتي، يكفي مرة. لنلتقِ غداً الساعة الثالثة عشرة، في مقهى أوركيديا، ماقولك؟ أجاب مونتيرو روسي: اتفقنا. الساعة الثالثة عشرة في مقهى أوركيديا. شد بيريرا على يده وقال له إلى اللقاء. فكر أن يعود ماشياً حتى بيته، فالطريق منحدر، على أية حال. كان النهار رائعاً، ولحسن الحظ، بدأ يهبّ نسيم أطلسي. لكنه لم يبدُ في وضع يسمح له بتأمل النهار. كان يعاني من قلق ما، ويرغب أن يتكلم

إلى أحد ما، ربما للأب أنطونيو، لكن الأب أنطونيو كان يقضي النهار قرب مرضاه. لذا فكر بالذهاب إلى صورة زوجته وتبادل كلمتين أو ثلاث معها. وهكذا خلع سترته ودخل مطمئناً إلى بيته، كما ادّعى.

13

أمضى بيريرا الليل في إنهاء ترجمة واختصار قصة *أونورين* لـ بلزاك، كما ادّعى. استغرقته الترجمة، لكنها بدت له رشيقة. نام ثلاث ساعات، من السادسة وحتى التاسعة صباحاً، ثم نهض. استحم بالماء البارد، شرب قهوةً، وتوجه إلى مكتب التحرير. استقبلته البوابة التي صادفها على السلالم، ببرود، وحيته بحركة من رأسها. أما هو، فغمغم صباح الخير بصوت نصف مسموع. دخل الغرفة، جلس إلى مكتبه، وطلب رقم الدكتور كوستا، طبيبه. قال بيريرا: ألو دكتور، بيريرا يتكلم. سأله الدكتور كوستا: إذن، كيف الحال؟أجاب بيريرا: نَفَسي يضيق ولاأتمكن من صعود الدرج، كما أظن أن وزني زاد بضع كيلو غرامات. وعندما أتنزه يخفق قلبي بشدة. قال الدكتور كوستا: اسمع يابيريرا، أنا أقوم، مرةً في الأسبوع، بزيارة لمستوصف يهتم بالعلاج الطبيعي بحمامات البحر في باريدي، فلماذا لا تأتي وتنزل فيه بضعة أيام؟ سأل بيريرا: أنزل في المستوصف، لماذا؟ أجاب الدكتور: لأن مستوصف باريدي يمارس رقابة طبية جيدة. فضلاً عن عنايته بأمراض الروماتيزم وأمراض القلب، بوسائل طبيعية، كحمام الطحالب، والتدليك وحميات التنحيف. يوجد من ناحية أخرى، أطباء ممتازون درسوا في فرنسا. من المفيد لك أن تأخذ قسطاً من الراحة، وأن تخضع لمراقبة طبية،

يابيريرا، ومستوصف باريدي هو ماتحتاج إليه بالضبط. إذا أردت، أستطيع الآن أن أحجز لك غرفة لأجل الغد، غرفة صغيرة جميلة، نظيفة، مطلة على البحر، حياة سليمة، حمامات طحالب، معالجة بحمامات البحر، وسوف آتي لأراك مرة على الأقل. ينزل هناك أيضاً عدد من المصابين بالسل، لكنهم في جناح مستقل، ولايوجد أي خطر لانتقال العدوى. ادّعى بيريرا أنه قال: لا، إن كان الأمر يتعلق بمرضى السل فأنا لاأخشى منهم، لأني قضيت حياتي مع مصابة بالسل ولم يؤثر المرض بي على الإطلاق. لكن المشكلة ليست هنا، المشكلة أني كُلِّفتُ بإعداد صفحة السبت الثقافية، ولاأستطيع أن أترك مكتب التحرير. قال الدكتور كوستا: اسمعني، اسمعني جيداً يابيريرا، باريدي تقع في منتصف الطريق بين لشبونة وكاسكيه، وتبعد من هنا، حوالى عشرة كيلو مترات، وإذا أردت أن تكتب مقالاتك في باريدي وترسلها إلى لشبونة، فهناك موظف المستوصف الذي يستطيع أن ينقلها لك كل صباح إلى المدينة، وفي جميع الأحوال فإن الصفحة الثقافية لاتصدر سوى مرة واحدة في الأسبوع، وإن أنت أعددت مقالاً طويلاً أو اثنين، تكون الصفحة جاهزة لأسبوعين، ثم دعني أقُلْ لك بأن الصحة أهم من الثقافة. قال بيريرا: موافق، لكن أسبوعين، كثير، يكفيني أسبوع راحة واحد. قال الدكتور كوستا: هذا أفضل من لاشيء. ادّعى بيريرا أنه امتثل وقَبِل أن يقضي أسبوعاً في مشفى باريدي للعلاج بالحمامات البحرية، وأنه سمح للدكتور كوستا أن يحجز له غرفة لليوم التالي، لكنه أصر على توضيح أن عليه أن يُخطِرَ مديرَه مسبقاً، من باب التلطف. أغلق السماعة وطلب رقم المطبعة. قال إن هناك قصة لـ بلزاك للنشر على حلقتين أو ثلاث، وأن الصفحة الثقافية تكون بالتالي جاهزة لبضع أسابيع. سأل عاملُ المطبعة: وزاوية «حدث ذات يوم»؟ أجاب بيريرا: لاتوجد زاوية حالياً، وأضاف قائلاً، لا تأتي لأخذ المواد من مكتب التحرير، لأنني لن أكون موجوداً بعد ظهيرة هذا اليوم، سأتركها لك

في مغلفٍ مغلق بمقهى أوركيديا، قرب الملحمة اليهودية. ثم طلب رقم الهاتف المركزي، ومن عاملة المقسم أن تصله مع منطقة حمامات بوشاكو المعدنية. طلب مدير الـ*لِشْبَوْا*، قال المستخدم إن المدير يتشمس في المنتزه، لاأعرف إن كنت أستطيع إزعاجه. قال بيريرا: نعم، تستطيع إزعاجه. قل له إن محرر الصفحة الثقافية هو الذي يطلبه. وصل المدير إلى الهاتف وقال: ألو، أنا المدير. قال بيريرا: سيدي المدير، لقد ترجمت واختصرت قصة *أونورين* لـ بلزاك، وهي تغطي عددين أو ثلاثة أعداد، أتصل بك لأنني أنوي الذهاب إلى مستوصف باريدي للعلاج بحمامات البحر، مشاكلي القلبية لاتتحسن، ونصحني طبيبي باتباع حمية، هل أحصل على إذنكم؟ سأل المدير: والجريدة؟ ادّعى بيريرا أنه قال: كما قلت لك، إنها مغطاة لأسبوعين أو ثلاثة على الأقل. من جهة أخرى فالمستوصف على بعد خطوتين من لشبونة. على أية حال، أتركُ لك رقم هاتف المستوصف، ثم، تعرف أنه إذا حدث أي شيء، أنتقل بسرعة إلى مكتب التحرير. سأل المدير: والشاب المتدرب؟ ألا تستطيع أن تتركه في المكتب بدلاً منك؟ أجاب بيريرا: لايستحسن ذلك، لقد قدم لي مقالي رثاء، لكني لاأعرف إلى أي حد هما مقالان صالحان للاستعمال. إذا مات كاتب مهم، أقوم بنفسي بالمهمة. قال المدير: موافق، خذ أسبوعاً من الحمية والعلاج، يادوتّور بيريرا، هناك على كل حال نائب المدير الذي يستطيع الاهتمام بالمشاكل التي قد تقع. حيَّاهُ بيريرا وطلب منه أن يُبلِغ احترامه للسيدة اللطيفة التي التقى بها. أغلق السماعة ونظر إلى ساعة الحائط. كان الوقت قريباً من موعد الذهاب إلى مقهى أوركيديا، لكنه أراد أولاً أن يقرأ المادة التي كتبت عن دانونسيو لزاوية «حدث ذات يوم»، والتي لم يتوافر له الوقت لقراءتها مساء اليوم السابق. إنّ بيريرا مستعد لإظهارها كدليل، لأنه احتفظ بها. كانت المادة تقول: «منذ خمسة أشهر بالضبط، الساعة الثامنة مساء، في الأول من شهر آذار عام 1938،

توفي غابرييلي دانونسيو. الذي كان اسمه الحقيقي، ولنذكره بهذه المناسبة، رابانييتا، فهل كان غابرييلي دانونسيو[1]، شاعراً كبيراً؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال، لأن أعماله ماتزال جديدة جداً بالنسبة لنا نحن معاصروه. ربما كان من الأنسب بالأحرى الكلام عن صورة الإنسان، التي تختلط بصورة الفنان. كان قبل كل شيء متذوقاً للجمال. أحب الترف، والظهور في المجتمع، وتفخيم الكلام، وأحب الحركة. كان من كبار أتباع المدرسة ماقبل الرمزية، محطِّماً للقواعد الأخلاقية، عاشقاً للظواهر المَرَضيّة وللغرام. استعار أسطورة الإنسان الأسمى من الفيلسوف الألماني نيتشه، لكنه اختصرها إلى رؤية تُمثِّل إرادة القوة للمُثُل الجمالية المكرسة لتكوين مشكالٍ ملونٍ لحياةٍ لايمكن تقليدها. كان أثناء الحرب العظمى داعية للدخول في الحرب، عدواً للسلام بين الشعوب. قام بممارسات حربية واستفزازية، كالطيران فوق فيينا، عام 1918، حين ألقى منشورات إيطالية على المدينة. بعد الحرب، نظَّم احتلالَ مدينة فيوم، التي طردته القوات الإيطالية منها فيما بعد. تراجع إلى مدينة غاردوني، وانزوى في فيلا أطلق عليها اسم (فيتوريالي ديللي إيتالياني)[1] ، حيث عاش حياة منحلة وماجنة، تميزت بقصص حب تافهة ومغامرات غرامية. أعجب بالفاشية وبالمنشآت الحربية. أطلق عليه فرناندو بيسوا لقب: «سولو على الترومبون»، وربما لم يكن مخطئاً تماماً. فالصوت الذي يصلنا منه لايشبه صوت كمانٍ مرهف، بل صوت آله نفخ مدوية، صوت بوق حاد ومستبد. حياةٌ قَلَّ مثيلُها، وشاعرٌ راعد، ورجلٌ مليء بالظلال وبالتسويات. إنه وجه لايجب تقليده، وهذا هو مادعانا لاستدعاء ذكراه. التوقيع روكسي.»

(1) الشاعر الإيطالي غابرييلي دانونسيو، أحد مؤسسي الفاشية الإيطالية، بنى مكاناً للقراءة، والعيش، والحب أسماه فيتوريالي ديللي إيتالياني، أي: الانتصار الإيطالي، وذلك في منطقة سيرميوني شمالي إيطاليا، على بحيرة كاردا. وقد تحول المكان الآن إلى متحف.

فكر بيريرا: غير قابل للاستعمال، قطعاً غير قابل للاستعمال. تناول ملف «مقالات التأبين» وأدرج الصفحة بداخله. لم يعرف ماالذي جعله يفعل ذلك، كان بوسعه أن يلقي بها في سلة المهملات، لكنه على العكس، احتفظ بها. ثم، ولكي يهدئ الإثارة التي طغت عليه، فكر بمغادرة مكتب التحرير والتوجه إلى مقهى أوركيديا.

حين وصل إلى المقهى، ادّعى بيريرا أن أول شيء رآه هو شعر مارتا الأصهب. كانت جالسة إلى طاولة صغيرة في إحدى الزوايا، قرب المروحة، وظهرها للباب. كانت ترتدي الثوب ذاته الذي ارتدته في أمسية عيد البراشا دا آليغريا، بحمالاته المتقاطعة عند الظّهر. ادّعى بيريرا أنه فكر أن لمارتا كتفين رائعي الجمال، بكل الصفات المطلوبة، ناعمين، وشديدي التناسق. اقترب ووقف مقابلها. قالت مارتا بطبيعية: آ، دوتّور بيريرا، أتيتَ بدلاً من مونتيرو روسي. هو لايستطيع أن يكون اليوم هنا.

جلس بيريرا إلى الطاولة وسأل مارتا إن كانت تريد مقبلاً. أجابت مارتا إنها تود بطيبة خاطر أن تأخذ كأساً من البورتو الصِّرف. نادى بيريرا النادل وطلب كأسي بورتو. ماكان يجب أن يتناول مشروبات كحولية لكنه على كل حال سوف يدخل اعتباراً من اليوم التالي، إلى مستوصف للعلاج بحمامات البحر، من أجل الخضوع لحِمية تمتد أسبوعاً. عندما قدِم النادل لإحضار الطلب، قال بيريرا متسائلاً: حسناً؟ أجابت مارتا: حسناً، أظن أن هذه المرحلة صعبة على الجميع. لقد سافر إلى ألنتيخو، وسيبقى حالياً هناك، من المفيد أن يقضي بضعة أيام خارج لشبونة. سأل بيريرا بتهور: وابن عمه؟ نظرت إليه مارتا وابتسمت. أعلم أنك قدّمت عوناً كبيراً لِـ مونتيرو روسي وابن عمه، لقد كنت رائعاً حقاً، دوتّور بيريرا. كان يجب أن تكون من جماعتنا. شعر بيريرا بشيء من السخط، كما ادّعى، وخلع سترته. ردّ قائلاً: اسمعي ياآنسة، أنا لست

من جماعتكم ولا من جماعتهم، أنا أفضّل أن أتدبر أموري بمفردي، فضلاً عن أنّي لاأعرف من تكون جماعتكم ولا أريد أن أعرف. أنا صحفي وأهتم بالثقافة، بالكاد انتهيت من ترجمة قصة لبلزاك، وأفضّل عدم الاطلاع على قصصكم، أنا لاأهتم بالحوادث والأخبار المنوعة. شربت مارتا جرعة من نبيذ البورتو وقالت: نحن لسنا مادة للتداول على صفحات المنوعات، دوتّور بيريرا، وأتمنى أن تدرك هذا الأمر. نحن نعيش التاريخ. شرب بيريرا بدوره كأسه وأجاب: اسمعي ياآنسة، التاريخ كلمة كبيرة، أنا أيضاً قرأت فيكو[1] وقرأت هيغل في السابق. التاريخ ليس حيواناً يمكن استئناسه. قالت مارتا معترضة: لكنك ربما لم تقرأ ماركس. قال بيريرا: لم أقرأه، وهو لايثير اهتمامي، فقد سئمت من المدارس الهيغيلية، ثم دعيني أعيد عليك شيئاً سبق أن قلته: أنا لاأفكر إلا بنفسي وبالثقافة، هذا هو عالمي. سألت مارتا: أود أن أعرف، هل أنت فوضوي فردي؟. سأل بيريرا: ماذا تعنين بذلك؟ قالت مارتا: أوه، لاتقل لي إنك لاتعرف معنى فوضوي فردي، فأسبانيا مليئة بالفوضويين الفرديين الذين يثيرون حولهم الكثير من الكلام في هذه الأيام، ولقد تصرفوا بطريقة بطولية، حتى لو كانت إضافة القليل من النظام إلى سلوكهم، لاتُضيرُهم، هذا في رأيي على الأقل. قال بيريرا: اسمعي يامارتا، أنا لم آت إلى هذا المقهى لأتحدث في السياسة، وكما سبق وقلت لك، السياسة لاتهمني، لأنني أهتم بالدرجة الأولى بالثقافة. كان هناك موعد لي مع مونتيرو روسي وأتيتِ لتقولي لي إنه في ألنتيخو، ماالذي راح يفعله في ألنتيخو؟

نظرت مارتا حولها كما لو أنها تبحث عن النادل، وسألت: هل نطلب شيئاً للأكل، فلدي موعد في الثالثة. نادى بيريرا مانويل. طلبا

(1) جيوفاني باتيستا فيكو: 1668-1744 فيلسوف إيطالي اختص في فلسفة التاريخ.

طبقَيْ عجة بالأعشاب، ثم كرر بيريرا السؤال: ماذا راح مونتيرو روسي يفعل في ألنتيخو؟ أجابت مارتا: اصطحب ابن عمه الذي تلقى أوامر في الدقيقة الأخيرة، ففي ألنتيخو على وجه الخصوص يكثر الناس الذين يريدون الذهاب للقتال في أسبانيا، توجد تقاليد ديموقراطية كبيرة في ألنتيخو، ويوجد أيضاً الكثير من الفوضويين الفرديين، من أمثالك، دوتّور بيريرا، هناك ما يمكن الاشتغال به بالتأكيد . الأمر باختصار هو أن مونتيرو روسي اضطر أن يرافق ابن عمه إلى ألنتيخو لأنها المكان الذي يتم فيه تجنيد المتطوعين. أجاب بيريرا: حسناً، تمني له من قبلي عملية تجنيد موفقة. أحضر النادل العجة وبدأا يأكلان. عقد بيريرا الفوطة حول رقبته، أخذ قطعة من العجة وقال: اسمعي يامارتا، أنا ذاهب غداً إلى مستوصف للعلاج بحمامات البحر قرب كاسكيه، لدي مشاكل صحية. قولي لِمونتيرو روسي إن مقاله عن دانونسيو غير صالح للنشر إطلاقاً. أدَعُ لك رقم هاتف العيادة التي سأكون فيها خلال أسبوع. وأفضل وقت لالتقاطي هو وقت الوجبات، والآن قولي لي أين مونتيرو روسي؟ خفضت مارتا صوتها وقالت: سيكون هذا المساء في بورتاليغري، عند أصدقاء، لكنني أفضّل عدم إعطائك العنوان، فهو من ناحية ثانية عنوان مؤقت، لأنه سينام يوماً هنا ويوماً هناك، سيضطر للتنقل قليلاً عبر ألنتيخو، والأرجح أنه هو الذي سيتصل بك. قال بيريرا وهو يعطيها بطاقة صغيرة: حسناً، هذا رقم هاتفي في مستوصف العلاج الطبيعي في باريدي. قالت مارتا: دوتّور بيريرا، يجب أن أنصرف، اعذرني فلدي موعد وعلي أن أجتاز المدينة بأكملها.

نهض بيريرا، وصافحها. وضعت مارتا قبعتها القش على رأسها وابتعدت. بقي بيريرا ينظر إليها وهي تخرج، مفتوناً بتلك القامة التي كانت تبرز بوضوح في ضوء الشمس. شعر بأنه مرتاح

وشبه مسرور، لكنه لايعرف السبب. أشار إلى مانويل الذي وصل على عجل وسأله إن كان يريد مُهضّماً. لكن بيريرا كان يشعر بالعطش، لأن فترة بعد الظهر كانت حارة جداً. فكر لحظة، ثم قال إنه يريد فقط شراب ليمون، ويريده بارداً جداً، مليئاً بقطع الثلج، كما ادّعى.

14

في اليوم التالي، ادّعى بيريرا أنه نهض باكراً، أعدّ حقيبة صغيرة، ووضع فيها *حكايا الاثنين* لِ ألفونس دوديه. فكر أنه قد يبقى بضعة أيام أُخر، ودوديه واحد من المؤلفين الذين يمكن أن تكون قصصهم من مواد صحيفة الـ *لِشبُوا*.

ذهب إلى المدخل، توقف عند صورة زوجته وقال لها: بالأمس رأيت مارتا، خطيبة مونتيرو روسي، لدي انطباع بأن هؤلاء الشبان سوف يحمّلون أنفسهم متاعب كبيرة، أو أنهم قد حمّلوها وانتهى الأمر. هذا على كل حال ليس من شأني. أحتاج لأسبوع من العلاج الطبيعي بحمامات البحر، الدكتور كوستا هو الذي ألزمني بذلك، ثم إن المرء يختنق في لشبونة. انتهيت من ترجمة قصة بلزاك، *أونورين*. أسافر هذا الصباح إلى كيه دي سودريه، سأحملك معي إذا سمحت لي بذلك. تناول الصورة ووضعها في حقيبته، وجعل وجهها إلى الأعلى، لأن زوجته احتاجت طوال حياتها إلى الهواء وفكر أن الصورة أيضاً تحتاج أن تتنفس بشكل جيد. نزل بعد ذلك إلى ساحة الكاتدرائية الصغيرة، انتظر سيارة أجرة واستقلها إلى المحطة. توقف في الساحة وفكر أن يتناول شيئاً من البريتش بار التابع لرصيف سودريه. كان يعلم أنه مكان مطروق من قبل الأدباء ويأمل أن يلتقي فيه بأحد ما. دخل وجلس إلى طاولة في إحدى الزوايا.

وبالفعل، على الطاولة المجاورة، كان هناك الروائي أكيلينو ريبيرو يتناول الغداء مع برناردو ماركيس، الرسام الطليعي، الذي وضع الرسوم لأهم مجلات الحداثة البرتغالية. حياهما بيريرا متمنياً لهما نهاراً طيباً ورد الفنانان عليه بحركة بالرأس. فكر بيريرا أنه من الجميل أن يتناول الغداء إلى طاولتهما، وأن يقول لهما إنه تلقى في العشية نقداً سلبياً جداً بخصوص دانونسيو، ويسألهما رأيهما بذلك، لكن الفنانين كانا منهمكين في حديث خاص ولم يجرؤ بيريرا أن يزعجهما. فَهِمَ أن برناردو ماركيس ماعاد يريد أن يرسم وأن الروائي يريد السفر إلى الخارج. ادّعى بيريرا أن ذلك ولّدَ لديه شعوراً بالإحباط، لأنه لم يكن يتوقع أن يُقْدِم روائي مثل أكيلينو ريبيرو على هجر بلاده. كان بيريرا يَسمع بعض الجمَل بينما هو يتناول شراب الليمون ويتذوق ماطلبه من محار. كان أكيلينو ريبيرو يقول: إلى باريس، المكان الوحيد الذي يمكن الذهاب إليه هو باريس. وكان برناردو ماركيس يوافق قائلاً: عرضوا علي أن أرسم لمجلات مختلفة، لكن هنا، البلد رهيب، من الأفضل عدم التعاون مع أحد. أنهى بيريرا محاراته وشرابه، نهض وتوقف عند طاولة الفنانين. قال: أتمنى للسيدين مواظبةً جيدةً، اسمحا لي أن أقدم نفسي، أنا دوتّور بيريرا، من صفحات الـ*لسبوا* الثقافية. البرتغال بأسرها تفخر بفنانين من أمثالكما، نحن بحاجة لكما.

خرج في ضوء الظهيرة المبهر وتوجه إلى القطار. ابتاع بطاقة إلى باريدي، وسأل كم من الوقت يستغرق السفر إلى هناك. أجابه الموظف إنه يستغرق القليل من الوقت، وسُرَّ لذلك. كان ذلك هو القطار الذي يعمل على خط إستوريل، وكان بالدرجة الأولى يقلُّ الناس إلى أماكن الاستجمام وقت الإجازة. أخذ بيريرا مكاناً في القسم اليساري من القطار، لأنه كان يريد مشاهدة البحر. كانت المقطورة خالية عملياً، نظراً لأن الوقت كان ظهراً، فاختار مكاناً راقَ له. أنزل الستارة قليلاً كيلا تصيب الشمس عينيه، فقد كانت

الجهة التي اختارها عرضة لشمس الظهيرة. نظر إلى المحيط. راح يفكر بحياته، لكنه ادّعى أنه لايريد الكلام عن هذا الأمر. يفضل القول بأنّ البحر كان هادئاً وكان هناك مستحمُّون على الشاطئ. حاول بيريرا أن يعرف منذ كم من الوقت كفَّ عن السباحة في المحيط، فبدا له ذلك الوقت كأنه قرون. استعاد أيام كوامبرا، حين كان يذهب إلى الشاطئ قرب بورتو، أو غرانجا أو قرب إسبينهو مثلاً، حيث كان يملك ملهىً ونادياً. كان البحر بارداً جداً على تلك الشواطىء الشمالية، لكنه كان قادراً أن يسبح صباحات بأكملها، في حين كان جميع رفاقه في الجامعة، لايحتملون البرد، وينتظرونه على الشاطىء. بعدها كانوا يرتدون ثيابهم، ستراتهم الأنيقة، ويتوجهون إلى النادي للعب البلياردو. كان الناس يعجبون بهم، والمدير يستقبلهم قائلاً: هاهم طلبة كوامبرا! ويقدم لهم أفضل بلياردو.

خرج بيريرا من حلمه عند المرور أمام سانتو أمارو. كان شاطئاً جميلاً مقوس الشكل، وكانت تُرى الكبائن المصنوعة من القماش، بشرائط بيضاء ولازوردية. توقف القطار وفكر بيريرا أن ينزل ويذهب للسباحة، فبوسعه على كل حال أن يستقل القطار التالي. كان ذلك أقوى منه. ليس باستطاعة بيريرا معرفة السبب الذي جعله يشعر بذلك الاندفاع. ربما لأنه فكر بأيام كوامبرا وبالسباحة في شاطىء غرانجا. نزل مع حقيبته واجتاز الممر تحت الأرضي الذي يؤدي إلى الشاطئ. عندما بلغ الرمل، نزع حذاءه وجرابه وتقدم هكذا ، حاملاً الحقيبة بيد والحذاء باليد الأخرى. رأى المراقب في الحال، كان شاباً برونزي اللون ، ممدداً فوق كرسي طويل، وهو يراقب السابحين. اقترب بيريرا وقال له: إنه يريد استئجار ثوب سباحة وحجرة لتغيير الملابس. نظر المراقب إلى بيريرا مدققاً فيه من رأسه حتى قدميه، بهيئة ساخرة، وهمس: لاأعلم إن كان لدينا ثوب على قياسك، على كل حال سأعطيك مفتاح

المخزن، وترى بنفسك. لك الحجرة الأوسع، ذات الرقم واحد. ثم سأل بلهجة بدت لبيريرا أنها ساخرة: هل تحتاج أيضاً إلى دولاب لتطفو بواسطته؟ أجاب بيريرا: أنا أعرف السباحة جيداً، ربما أفضل منك بكثير، لاتقلق. أخذ مفتاح المخزن ومفتاح الحجرة ومضى. كان يوجد في المخزن كل شيء تقريباً: دواليب، عوامات قابلة للنفخ توضع في الأذرع، شبكة صيد مغطاة بطوافات، أثواب سباحة. بحث بينها ليرى إن كان يوجد ثوب منها على الطريقة القديمة، ثوب كامل، يغطي البطن أيضاً. نجح في العثور على واحد ولبسه. كان ضيقاً عليه بعض الشيء ومصنوعاً من الصوف، لكنه لم يجد أحسن منه. أودع حقيبته وملابسه في الحجرة، ثم اجتاز الشاطئ. قرب الماء، كان عدد من الشبان يلعبون بالكرة، فتجنَّبَهم بيريرا. دخل إلى الماء بهدوءٍ، بهدوءٍ تام، متيحاً للبرد أن يغلِّفه شيئاً فشيئاً. وحين وصل الماء إلى سُرَّته، غطس وراح يسبح سباحة بطيئة موزونة، واضعاً رأسه في الماء. سبح مسافة طويلة حتى بلغ الحد الأقصى، عند الإطارات. حين تعلَّقَ بدولاب الإنقاذ أحس أنه يلهث من التعب، وأن قلبه يدق بقوة أكثر من اللازم. فكر قائلاً لنفسه: أنا مجنون، منذ عمرٍ لم أسبح، وَلم ألق بنفسي هكذا في الماء مثل رياضي. ارتاحَ وهو معلق بالدولاب. استلقى على ظهره. كانت السماء من فوقه ذات لون لازوردي صافٍ. استعاد بيريرا أنفاسه وعاد وهو يسبح بهدوء سباحة بطيئة. مر من أمام المراقب وأراد أن يرضي نفسه. قال: كما لاحظت لم أحْتَجْ إلى دولاب، متى موعد القطار التالي إلى إستوريل؟ نظر المراقب إلى الساعة الجدارية، وأجاب: خلال ربع ساعة. قال بيريرا: حسنٌ جداً، الحق بي إذن، سأذهب لارتداء ملابسي، وأريد أن أدفع لك الحساب، فليس لدي وقت طويل. لبس ثيابه في الحجرة. خرج. دفع للمراقب. سرّح الشعرات القليلة الباقية من شعره بمشط صغير يحمله في حافظة أوراقه وحيّا قائلاً: إلى اللقاء، وانتبِهْ لهؤلاء الشبان الذين يلعبون بالكرة، فحسب رأيي، فهُمْ لايعرفون السباحة، ويضايقون المستحمين.

اجتاز الممر تحت الأرضي وجلس على مقعد من حجر، تعلوه مظلة. سمع صوت وصول القطار ونظر إلى الساعة الجدارية. فكر أن الوقت كان متأخراً، وأنهم انتظروه حتماً على الغداء في مستوصف العلاج الطبيعي، لأن الوجبات تقدم باكراً في المستوصفات. فكر: هكذا أفضل. لكنه وبينما القطار يصل المحطة، كان يشعر بأنه على مايرام، مسترخٍ ومنتعش، ثم إنه بالنسبة للعلاج الطبيعي في المستوصف، ادّعى بيريرا أن أمامه كل الوقت، فهو سيبقى هناك أسبوعاً على الأقل.

عندما وصل إلى باريدي، كانت الساعة حوالى الثانية والنصف. استقل سيارة أجرة وطلب من السائق أن يأخذه إلى مستوصف العلاج بالحمامات البحرية. سأل سائق السيارة: مشفى السل؟ أجاب بيريرا: لاأدري، نلك المجاور للبحر. قال السائق: إنه إذن على بعد خطوتين، بإمكانك أيضاً أن تذهب إليه سيراً. قال بيريرا: اسمع، أنا متعب والطقس حار جداً، سأعطيك إكرامية.

كان مشفى العلاج بالحمامات البحرية عبارة عن مبنى كبير زهري اللون، له حديقة مليئة بأشجار النخيل. يتوضع في الأعلى ، فوق الصخور، يُصعد إليه بسلالم ومنه يمتد الطريق إلى الشاطئ. صعد بيريرا الدرجات بمشقة ودخل البهو. استقبلته سيدة ضخمة ذات خدين أحمرين، ترتدي بلوزة بيضاء. قال بيريرا: أنا دوتّور بيريرا، لا بد أن طبيبي الدكتور كوستا اتصل بك لحجزغرفة. قالت السيدة ذات البلوزة البيضاء: أوه، دوتّور بيريرا، كنا بانتظارك على الطعام، لِمَ تأخرت كثيراً، هل تناولت الغداء؟ أقر بيريرا قائلاً: للحق إني لم آكل سوى محار في المحطة، وأشعر بقليل من الجوع. قالت السيدة ذات البلوزة البيضاء: اتبعني إذن، المطعم مغلق، لكن هناك ماريا داس دوريس التي يمكن أن تعد لك غداءً صغيراً في هذه الحالة. قادته إلى قاعة الطعام، وهي قاعة واسعة بنوافذ مطلة على

البحر. كانت خالية تماماً. جلس بيريرا إلى طاولة صغيرة، ولم يطل الأمر حتى حضرت سيدة ترتدي مريول مطبخ، ولها شاربان. قالت السيدة: أنا ماريا داس دوريس، أنا الطباخة، يمكن أن أعد لك شيئاً صغيراً مشوياً. أجاب بيريرا: سمكة موسى، مع الشكر. طلب أيضاً كأس شراب ليمون وراح يرشفه بتلذذ. أنزل سترته عنه وعقد الفوطة حول رقبته. جاءت ماريا داس دوريس تحمل طبق سمك مشوي. قالت: لم يتبق لدينا سمك موسى، فأعددت لك سمكة مرجان. بدأ بيريرا يأكلها بسرور. قالت الطباخة: حمام الطحالب في الساعة السابعة عشرة، ولكن إذا لم يكن لديك رغبة بالذهاب إليه وتريد أن تنام قليلاً فبوسعك أن تبدأ غداً، طبيبك هو الدكتور كاردوزو، سوف يأتي لزيارتك في غرفتك بعد ظهر هذا اليوم الساعة السادسة. قال بيريرا: ممتاز، أعتقد أنني سأذهب لأرتاح قليلاً.

صعد إلى غرفته، وكانت الغرفة الثانية والعشرين، ووجد حقيبته. أغلق أباجورات النوافذ، غسل أسنانه وتمدد على السرير دون بيجاما. كان يهب نسيم أطلسي جميل، يتغلغل عبر الأباجورات ويحرك الستائر. غفا بيريرا في الحال تقريباً. حلم حلماً جميلاً، حلماً من أيام شبابه، كان على شاطئ الغرانجا، يسبح في محيط أشبه بالمسبح، وعلى طرف هذا المسبح توجد فتاة شاحبة تنتظره وهي تحمل منشفة لليدين. وحين عاد من السباحة استمر الحلم ، كان بالفعل حلماً جميلاً، لكن بيريرا فضّل ألاّ يقول كيف انتهى، لأن لاعلاقة لحلمه بهذه القصة، كما يدّعي.

15

ادّعى بيريرا أنه في السادسة والنصف، سمع طرقاً على بابه، لكنه كان مستيقظاً، يتطلع إلى خطوط الضوء والظل التي تبعثها الأباجورات على السقف، ويفكر بقصة بلزاك *أونورين* ، يفكر بالتوبة، وكان يبدو له أنه هو أيضاً عليه أن يتوب عن شيء ما، ولكنه لايعلم عن ماذا. شعر فجأة برغبة بالكلام مع الأب أنطونيو، لأنه يستطيع الاعتراف له بأنه يريد أن يتوب، ولايعرف ماالشيء الذي عليه أن يتوب عنه، كان يشعر فقط بحنين إلى التوبة، ربما لمجرد أن فكرة التوبة تعجبه، من يدري.

سأل بيريرا: من؟ قال صوت ممرضة من وراء الباب: إنها ساعة النزهة، الدكتور كاردوزو ينتظرك في البهو. ادّعى بيريرا أنه لم تكن لديه أية رغبة بالقيام بنزهة، لكنه نهض مع ذلك، فتح حقيبته، انتعل زوج أحذية من الحبال، لبس بنطالاً قطنياً، وقميصاً فضفاضاً كاكي اللون. أجلس صورة زوجته إلى الطاولة وقال لها: حسناً، هاقد وصلت إلى هنا، إلى عيادة العلاج الطبيعي بحمامات البحر، لكني إنْ ضجرت فسوف أغادر، لقد حملت معي لحسن الحظ كتاباً لِ ألفونس دوديه، وهكذا سوف أستطيع القيام بترجمة مادة للصحيفة، إنه *الشيء الصغير*، وهوالكتاب الذي نال إعجابنا بصورة خاصة، من كتب دوديه، أتتذكرينه؟ قرأناه سويةً في كوامبرا، وأثر فينا كلينا، إنه

قصة طفولة، وربما كنا نفكر بابن لنا لم يأتِ، لابأس، أحضرت على كل حال مجموعة *حكايا الإثنين*، وأظن أن إحدى قصصها تناسب الـ*لِشبُوَا* جداً، ولكن اعذريني الآن، علي أن أتركك، يبدو أن هناك طبيباً بانتظاري، لنذهب ونرَ ماهي طرق العلاج بحمامات البحر، وسنلتقي فيما بعد.

حين وصل إلى البهو، رأى سيداً ينظر إلى البحر عبر النوافذ. اقترب بيريرا منه. كان رجلاً بين الخامسة والثلاثين والأربعين من عمره، له لحية صغيرة شقراء وعينان زرقاوان بلون السماء. قال الطبيب بابتسامة خجولة: مساء الخير، أنا الدكتور كاردوزو، أتخيل أنك دوتُّور بيريرا، كنت أنتظرك. هذه ساعة نزهة المرضى على الشاطئ، ولكنك إذا فضلت بإمكاننا البقاء هنا كي نتناقش، أو بإمكاننا الخروج إلى الحديقة. أجاب بيريرا: أن نزهة على الشاطئ لاتناسبه في الواقع كثيراً، قال إنه كان أثناء النهار على الشاطئ، وروى كيف سبح في سانتو أمارو. قال الدكتور كاردوزو باستحسان: أوه، رائع، كنت أظن أني سأتعامل مع مريض أكثر صعوبة، ولكني أرى أن الطبيعة ماتزال تجتذبك. قال بيريرا: ربما كنت بالأحرى أنجذب إلى الذكريات. سأل الدكتور كاردوزو: بأي معنى؟ قال بيريرا: ربما أشرح لك ذلك فيما بعد، ولكن ليس الآن، غداً ربما.

خرجا إلى الحديقة. اقترح الدكتور كاردوزو قائلاً: هل نقوم بنزهة؟ سيكون هذا شيئاً جيداً لك، ولي أنا أيضاً. وراء أشجار نخيل الحديقة، التي تنبت بين الصخور والرمال، كان هناك بقعة جميلة للتنزه. في تلك البقعة، كان بيريرا يلحق بالدكتور كاردوزو، الذي لديه رغبة واضحة جداً بالثرثرة. قال الطبيب: لقد عهد بك إليّ، لأيام معدودة ، أحتاج أن أتكلم معك، وأن أعرف عاداتك، وينبغي ألاّ يكون لديك أسرار تخفيها عني. قال بيريرا بروح شديدة التعاون:

سَلْني عن أي شيء. قطف الدكتور كاردوزو عشبة ووضعها في فمه. قال: لنبدأ بعاداتك الغذائية، ماهي؟ أجاب بيريرا: في الصباح أتناول القهوة ثم أتغدى وأتعشى، مثل جميع الناس، الأمر بسيط جداً. سأل الدكتور كاردوزو: وماذا تأكل عادةً؟ أقصد، ماهو شكل غذائك؟ كان بيريرا يريد أن يجيب: عجة، لاآكل عملياً إلا العجة، لأن البوابة التي تعمل عندي تعد لي شطائر بالعجة، ولأنهم في مقهى أوركيديا لايقدمون إلا العجة بالأعشاب. لكنه شعر بالخجل وأجاب بشكل مختلف. قال: أتناول غذاءً منوعاً، من سمك ولحوم وخضار. أنا معتدل فيما يتعلق بالغذاء وآكل بطريقة عقلانية. سأل الدكتور كاردوزو: وبِطْنَتُك، متى بدأت تظهر؟ أجاب بيريرا: منذ بضع سنين، بعد وفاة زوجتي. سأل الدكتور كاردوزو: وماذا عن الحلويات؟ هل تأكل الكثير من الحلويات؟ أجاب بيريرا: مطلقاً، لاأحبها، لاأتناول إلا شراب الليمون. سأل الدكتور كاردوزو: شراب الليمون، كيف؟ أجاب بيريرا: عصير ليمون، أحبه جداً، إنه ينعشني ولديّ إحساس أنه يفيد أمعائي، لأن أمعائي غالباً ماتكون مضطربة. سأل الدكتور كاردوزو: كم مرة في اليوم؟ فكر بيريرا برهة ثم أجاب: تبعاً للأيام، في أيام الصيف مثلاً، حوالى عشرة. قال الدكتور كاردوزو متعجباً: عشر ليمونات معصورة في اليوم! يبدو لي الأمر جنوناً، يادوتّور بيريرا، وقل لي هل تضع سكراً؟ قال بيريرا: أملؤها بالسكر، نصف الكأس ليمون ونصفه الآخر سكر. بصق الدكتور كاردوزو العشبة التي كانت في فمه، لوح بيده بحركة قاطعة، وأعلن بلهجة من يصدر حكماً: اعتباراً من اليوم، لم يعد هناك شراب ليمون، نستبدله بالمياه المعدنية، غير الغازية إن أمكن، ولكنك إذا فضلت المياه الغازية، فلابأس أيضاً. كان يوجد مقعد تحت أرزات المنتزه، جلس بيريرا عليه، مُجبراً الدكتور كاردوزو على الجلوس بدوره. قال الدكتور كاردوزو: اعذرني دوتّور بيريرا، أود الآن أن أطرح عليك سؤالاً حميمياً: ماذا بخصوص النشاط الجنسي؟ نظر بيريرا إلى قمة

الأشجار وقال: أوضِحْ كلامك أكثر. أوضَحَ الدكتور كاردوزو قائلاً: هل تعاشر النساء، هل تعيش حياة جنسية عادية؟ قال بيريرا: اسمع يادكتور، أنا أرمل، وما عدت في ريعان الشباب والعمل الذي أعمله يستغرقني جداً، فلا يعود لدي لا الوقت ولا الرغبة بالبحث عن امرأة لنفسي. سأل الدكتور كاردوزو: ولا حتى عاهرة، أو ماأدراني، مغامرة ما، امرأة سهلة، من وقت لآخر؟ قال بيريرا: ولا حتى ذلك. وأخرج من جيبه سيجاراً، وسأل إن كان بوسعه أن يدخن. سمح الدكتور كاردوزو له بذلك وقال: هذا لايناسب ماتعانيه من مرض القلب، ولكن طالما لاتستطيع التخلي عنه... اعترف بيريرا قائلاً: أفعل ذلك لأن أسئلتك تحرجني. قال الدكتور كاردوزو: سأسألك إذن سؤالاً محرجاً آخر، هل تصيبك حالات تلوث ليلية؟ قال بيريرا: لاأفهم السؤال. قال الدكتور كاردوزو: حسناً، أسألك إن كنت تحلم أحلاماً غرامية توصلك إلى النشوة، وإذا كان ذلك يحدث، فبماذا تحلم؟ أجاب بيريرا: اسمعني يادكتور، علّمَني والدي أن أحلامنا هي أكثر أشيائنا خصوصية، وأنه لايجب الإفصاح عنها لأحد. رد الدكتور كاردوزو: ولكنك هنا لأجل العلاج، وأنا طبيبك، ومايعتمل في نفسك له صلة بجسدك، ويجب علي أنا أن أعرف بماذا تحلم. اعترف بيريرا قائلاً: غالباً ماأحلم بـ غرانجا. سأل الدكتور كاردوزو: أهي امرأة؟ قال بيريرا: هي مكان، شاطئ قرب بورتو، كنت أتردد إليه كثيراً، حين كنت شاباً وكنت طالباً في مدينة كوامبرا، كان هناك أيضاً إسبينهو، الشاطئ الأنيق الذي يوجد فيه مسبح وكازينو، كنت أذهب إليه للسباحة ولعب البلياردو، فقد كانت فيه صالة جميلة للبلياردو، وإلى ذلك المكان كانت تأتي أيضاً خطيبتي التي تزوجتها فيما بعد، كانت فتاة مريضة، ولكنها لم تكن آنذاك تعلم بالأمر بعد. كانت تشعر فقط بألم كبير في رأسها، لقد كانت فترة جميلة من حياتي، وربما أحلم بها لأنه يروق لي أن أحلم بها. قال الدكتور كاردوزو: حسناً، هذا كل شيء بالنسبة لهذا اليوم، أود

كثيراً أن أتناول الطعام على طاولتك هذا المساء، نستطيع الكلام عن كل شيء وعن لاشيء، أنا مهتم جداً بالأدب، ورأيت أن صحيفتكم تولي حيزاً معتبراً للكتاب الفرنسيين من القرن التاسع عشر، لأني، كما تعلم، درست في باريس، وثقافتي فرنسية. سأصف لك عند المساء برنامج الغد. لِنَلتقِ الساعة الثامنة، في صالة المطعم.

نهض الدكتور كاردوزو وحيّاه. ظل بيريرا جالساً وراح ينظر إلى قمم الأشجار. أضاف بيريرا: اعذرني دكتور، لقد وعدتك أن أطفئ سيجاري، لكني أرغب أن أدخنه حتى نهايته. استأنف الدكتور كاردوزو قائلاً: افعل كما تريد، اعتباراً من الغد، نبدأ الحمية. بقي بيريرا يدخن وحده. فكر أن الدكتور كوستا، رغم كونه من معارفه القدامى، ما كان إطلاقاً ليطرح عليه أسئلة شخصية وحميمية إلى هذا الحد. لا جدال بأن الأطباء الشبان الذين درسوا في باريس مختلفون حقاً. شعر بيريرا أنه غبي وعانى من ارتباك كبير بعد هذه التجربة، لكنه فكر أنه من الأفضل ألاّ يفكر فيها كثيراً، فقد كان واضحاً، كما ادّعى، أنه في مستوصف متميز تماماً.

16

في الساعة الثامنة، على وجه الدقة، كان الدكتور كاردوزو جالساً إلى الطاولة في المطعم. ادّعى بيريرا أنه هو أيضاً كان دقيقاً في موعده وأنه اتجه إلى الطاولة. كان قد ارتدى من جديد بذته الرمادية ووضع ربطة عنقه السوداء. عندما دخل إلى القاعة، نظر حوله. كان هناك مايقارب الخمسين شخصاً، جميعهم من أعمار متقدمة. هُمْ على أية حال، أكبر منه سناً بشكل واضح. كان معظمهم أزواجاً عجائز ممن يتناولون عشاءهم على الطاولة نفسها. ادّعى أن ذلك ردَّ له النشاط، لأنه فكر أنه أحد أصغر الموجودين سناً، وكونه ليس متقدماً في السن إلى ذاك الحد، جعله يشعر بالسرور. ابتسم له الدكتور كاردوزو، وهمّ بالنهوض. رجاه بيريرا بحركة من يده بالبقاء جالساً. قال بيريرا: حسناً يادكتور كاردوزو، أنا تحت أمرك بالنسبة لهذا العشاء أيضاً. قال الدكتور كاردوزو: كأس ماء معدني على الريق، يعتبر دوماً قاعدةً صحية جيدة. قال بيريرا مُطالباً، غازية. وافق الدكتور كاردوزو قائلاً: غازية، وملأ له كأساً. شربه بيريرا بقليل من النفور معبراً عن رغبته بكأس من شراب الليمون. قال الدكتور كاردوزو: أود أن أعرف ماهي مشاريعك للصفحة الثقافية في الـ*لسبوا*، لقد أعجبت كثيراً بمقالك عن بيسوا، وبقصة موباسان، التي كانت ترجمَتُها ممتازة. أجاب بيريرا: أنا

ترجمتها، لكني لاأحب أن أكتب اسمي. رد الدكتور كاردوزو: يجدر أن تفعل، خاصة بالنسبة لأهم المقالات. ماذا تخبيء صحيفتكم إذن للمستقبل؟ أجاب بيريرا: سأقول لك يادكتور كاردوزو، بالنسبة للأعداد الثلاثة أو الأربعة القادمة، هناك نص لـ بلزاك يدعى *أونورين*، لاأدري إن كنت تعرفه. أشار كاردوزو أن لا، برأسه. قال بيريرا: إنه قصة عن التوبة، قصة جميلة عن التوبة، إلى درجة أنني قرأتها من زاوية سيرتي الذاتية الخاصة. قاطعه الدكتور كاردوزو قائلاً: نص عن التوبة للعملاق بلزاك؟ سرح بيريرا مفكراً للحظة وقال: عذراً لأني أسألك ذلك يادكتور كاردوزو، قلتَ لي بعد ظهر هذا اليوم بأنك درست في فرنسا، فما هي الدراسة التي قمت بها، لو سمحت؟ أجاب الدكتور كاردوزو: حصلت على دبلوم في الطب، ثم اختصصتُ اختصاصين، أحدهما في علم الحمية، والآخر في علم النفس. ادّعى بيريرا أنه قال: لاأرى صلة بين الاختصاصين، اعذرني، لكني لاأرى الصلة. قال الدكتور كاردوزو: ربما كانت هنالك صلة أقوى مما نظن، لاأدري إذا كان بوسعك أن تتصور العلاقة القائمة بين جسد الواحد منا وبين نفسيته، لكن هذه العلاقة قائمة بشكل يفوق تصورك. على كل حال كنت تقول لي إن قصة بلزاك هي سيرة ذاتية. قال بيريرا، أوه، لم أقل هذا. أردت أن أقول، إنني قرأتها من منظور سيرتي الذاتية، وإنني تعرفت على نفسي فيها. سأل الدكتور كاردوزو: في التوبة؟ قال بيريرا، بشكل من الأشكال نعم، ولو كان بطريقة معترضة جداً، أو بالأحرى بطريقة متاخمة، إنها الكلمة الملائمة، دعني أقُلْ بأنني تعرفت على نفسي فيها بطريقة متاخمة.

أشار الدكتور كاردوزو إلى الآنسة، وقال: سنأكل سمكاً هذا المساء. وأفضِّل أن تأخذ سمكاً مشوياً أو مسلوقاً، فضلاً عن أنه يمكن إعداده بطرق مختلفة. قال بيريرا مبرراً نفسه، سبق لي أن تناولت سمكاً مشوياً على الغداء، أما السمك المسلوق فلاأحبه كثيراً

بالفعل، رائحة المشافي تفوح منه، ولاأحب أن أعتبر نفسي مقيماً في مشفى، بل أفضِّل التفكير بأنني أمرُّ فيه مروراً. سآخذ بطيبة خاطر سمكة موسى بالفرن. قال الدكتور كاردوزو: عظيم، سمكة موسى مع الجزر بالزبدة، آخذ الشيء نفسه. ثم تابع: التوبة بطريقة متاخمة، مامعنى ذلك؟ قال بيريرا: كونك درست علم النفس يشجعني على التحدث إليك، ربما كان يجدر بي التحدث إلى صديقي الأب أنطونيو، الكاهن، لكنه لن يفهمني دون شك، فالكاهن هو من نعترف له بأخطائنا الشخصية، وأنا لاأشعر أني مذنب بشيء خاص، ومع ذلك فلدي رغبة بأن أتوب، أشعر بحنين للتوبة. قال الدكتور كاردوزو: ربما كان عليك أن تعمِّق المسألة يادوتُّور بيريرا، وإذا كان لديك رغبة بأن تعمقها معي، فأنا تحت تصرفك. قال بيريرا: حسناً، إنه إحساس غريب متواجد عند السطح الخارجي لشخصيتي، ولهذا السبب أقول إنه متاخم. إذ أشعر على الدوام بأنني من ناحيةٍ، مسرورٌ لكوني عشتُ الحياة التي عشتُها، مسرور لكوني درست في كوامبرا، وتزوجت امرأة مريضة أمضت حياتها في المصحات، لكوني اهتممت بالمنوعات طيلة ذاك العدد من السنين في صحيفة كبرى، ولكوني قبلت حالياً أن أدير الصفحة الثقافية لهذه الصحيفة المسائية الخفيفة والمتواضعة، ولكني في الوقت نفسه، أشعر وكأني أريد أن أتوب عن حياتي، لاأدري إن كنت واضحاً فيما أقوله.

بدأ الدكتور كاردوزو يأكل طبق السمك الذي طلبه، واقتدى به بيريرا. قال الدكتور كاردوزو: يجب أن أعرف الأشهر الأخيرة من حياتك بشكل أفضل، فربما كان هناك حدث ما. سأل بيريرا: حدث، بأي معنى؟ ماذا تقصد بذلك؟ قال الدكتور كاردوزو: الحدث، تعبير يستخدم في التحليل النفسي. ليس معنى هذا أني أؤمن بِـ فرويد إلى درجة كبيرة، فأنا من أتباع التوفيق بين المذاهب، لكني أظن أنه مُحِقٌّ فيما يتعلق بمسألة الحدث، دون أدنى شك. فالحدث شيء

ملموس تتعرض له حياتنا، فيقلب أو يشوّش قناعاتنا وتوازننا. باختصار، يمكن القول إن الحدث أمر حقيقي يقع في الحياة الحقيقية ويُحدِث تأثيراً على الحياة النفسية. يُستحسن أن تفكر إن كان قد وقع في حياتك حدث ما. ادّعى بيريرا أنه قال: لقد التقيت بشخص، أو بالأحرى شخصين، شاب وصديقته. قال الدكتور كاردوزو: حدثني عنهما. قال بيريرا: حسناً، ماحدث هو أنني احتجتُ، من أجل الصفحة الثقافية، أن أعدّ مقالات تأبينية مسبقة للكتّاب الهامين الذين قد يموتون في أية لحظة، والشخص الذي التقيت به قدم بحثه الخاص من أجل نيل الأستاذية حول الموت، صحيح أنه نسخ هذا البحث جزئياً، لكنه في البداية أعطاني انطباعاً بأنه يَجِدُ نفسه في مسألة الموت، مما دعاني لأن أوظفه كمتدرِّب أستكتبه في المواد التأبينية المسبقة. وكتب لي عدداً منها دفعت له أجرها من جيبي، لأنني لم أكن أرغب أن أُثقِل على ميزانية الجريدة، لكنها جميعها، مواد غير صالحة للنشر، لأن هذا الشاب يضع السياسة في رأسه، وقد كتب كل المقالات التأبينية برؤية سياسية. وأظن، للحقّ، أن صديقته هي التي تضع هذه الأفكار في رأسه، أقصد أفكاراً مثل الفاشية، والاشتراكية، والحرب الأهلية في أسبانيا، وأشياء أخرى من هذا القبيل. جميعها مقالات لا تصلح للنشر كما قلت لك، ودفعت له أجرها حتى اللحظة. أجاب الدكتور كاردوزو: لا يوجد أي سوء في ذلك، وأنت لا تخاطر إلا بمالك. ادّعى بيريرا أنه أقرّ بذلك وأضاف: ليس الأمر هنا، الأمر بالأحرى أنه ساورَني شَكٌّ مفادُهُ: وماذا لو كان هؤلاء الشبان على حق؟ قال الدكتور كاردوزو بهدوء: في هذه الحالة، سيكونون ببساطة، على حق، لكن التاريخ هو الذي سيحكم، ولست أنت، يادوتّور بيريرا. قال بيريرا: نعم، ولكن، إذا كانوا على حق، فإن حياتي ستكون بلا معنى، لن يكون هناك معنى لدراستي للأدب في كوامبرا، أولكوني اعتقدت على الدوام أن الأدب هو الشيء الأكثر أهمية في العالم، لن يكون هناك من معنى لكوني أدير الصفحة الثقافية في هذه الصحيفة المسائية التي لاأستطيع أن أعبّر فيها عن رأيي، والتي عليّ أن أنشر

فيها قصصاً فرنسية من القرن التاسع عشر. لا شيء سيكون له معنى، وهذا هو ما أشعر برغبة في أن أتوب عنه. سيبدو الأمر كما لو أنني شخص آخر ولست ذلك الـ بيريرا الذي كان صحفياً على الدوام، كما لو أن علي أن أنكِر شيئاً ما.

نادى الدكتور كاردوزو الآنسة وطلب طبَقَيْ مقدونية[1] بالفاكهة دون سكر ولا ثلج. قال الدكتور كاردوزو، أود أن أطرح عليك سؤالاً، هل تعرف *الأطباء الفلاسفة*؟ نفى بيريرا قائلاً: لا، لاأعرفهم، من يكونون؟ قال الدكتور كاردوزو: أهم اثنين منهم هما، تيوديل ريبوت وبيير جانيه. كانت نصوصهما هي مادة دراستي في باريس، إنهم أطباء وعلماء نفس، لكنهم فلاسفة أيضاً، ويؤيدون نظرية تبدو لي هامة، هي نظرية اتحاد الأرواح. قال بيريرا: حدثني عن هذه النظرية. قال الدكتور كاردوزو: حسناً، إن الاعتقاد بأن الإنسان «واحد» وأنه مُكْتَفٍ بنفسه، منفصلٌ عن التعدد اللانهائي للأنا، هو الوهم، وإجمالاً هو سذاجة تعود للتقاليد المسيحية التي تعتقد بوجود روح واحدة لكل شخص. يرى الدكتور ريبوت والدكتور جانيه الشخصيةَ اتحاداً يضم عدة أرواح، لأن في داخل كل منا عدة أرواح، اتحاد يكون تحت إشراف أنا مهيمنة. توقف الدكتورهنيهة ثم تابع: إنّ مانسميه النموذج، أو الكائن، أو الحالة السوية، ليس إلا نتيجة، وليس حالة أولية سابقة، وترتبط هذه النتيجة بسيطرة الأنا المهيمنة التي فرضت نفسها داخل اتحاد أرواحنا. وفي حال ظهور أنا أخرى، أقوى وأكثر قدرة، تقوم هذه الأنا بالإطاحة بالأنا المهيمنة وتحل محلها في إدارة مجموعة الأرواح، أو بتسمية أفضل، اتحادها. وتدوم سيطرتها إلى أن تتم الإطاحة بها بدورها على يد أنا أخرى مهيمنة، إثر هجوم مباشر، أو بعد عملية حت بطيئة وصبورة. وختم الدكتور كاردوزو كلامه قائلاً: دوتّور بيريرا، ربما كانت هناك أنا مهيمنة، هي الآن، إثر عملية حت بطيئة وصبورة، بصدد السيطرة على اتحاد أرواحك وأنت

---

(1) مقدونية: طعام مركب من فواكه أو بقول مقطعة.

لاتستطيع أن تفعل شيئاً. ربما لاتستطيع أن تفعل شيئاً سوى مساعدتها على ذلك.

أنهى الدكتور كاردوزو تناول طبقه، ومسح فمه. سأله بيريرا: وإذن، ماذا بقي علي أن أفعل؟ أجاب الدكتور كاردوزو: لاشيء، عليك ببساطة أن تنتظر، فربما كانت في داخلك أنا مهيمنة، تعمل على تولي قيادة أرواحك، إثر عملية انجراف بطيئة، وبعد كل هذه السنين التي قضيتَها في الصحافة متابعاً الأخبار المنوعة، ومقتنعاً بأن الثقافة هي أهم شيء في العالم، وربما كنتَ تفسح لها المجال للظهور. إنك على كل حال لاتستطيع التصرف بشكل مغاير، لن تستطيع ذلك، وإلا فسوف تدخل في صراع مع نفسك، وإذا أردت التوبة عن حياتك، فافعل. وإذا أردت أن تروي ذلك للكاهن، فَليَكُنْ. حاصل الكلام يادوتّور بيريرا، أنك قد بدأت تفكر أن هذين الشابين علي حق وأن حياتك كانت، حتى الوقت الحاضر، بلا جدوى، حسناً فَليَكُنْ. ربما لن تبدو حياتك ، من الآن فصاعداً بلا جدوى إن أنت تركت أناك الجديدة المهيمنة، تقودك، وإن كففت عن التعويض عن عذاباتك بالطعام وكؤوس شراب الليمون المملوءة بالسكر.

أنهى بيريرا تناول طبق مقدونيته بالفاكهة، ونزع الفوطة التي وضعها حول عنقه. قال: نظريتك مثيرة جداً للاهتمام، سأفكر بها. أود كثيراً تناول فنجان قهوة، ما قولك؟ قال الدكتور كاردوزو: القهوة تسبب الأرق، أما إذا كنت لاتريد النوم، فهذا أمر يخصُّك. حمامات الطحالب تُجرى مرتين في اليوم، في التاسعة صباحاً وفي الخامسة بعد الظهر. أتمنى أن تكون دقيقاً في موعدك غداً صباحاً، أنا واثق أن حمام الطحالب سيكون شديد الفائدة لك.

قال بيريرا هامساً: طابت ليلتك. نهض وابتعد. مشى بضع خطوات ثم عاد. كان الدكتور كاردوزو يبتسم له . ادّعى بيريرا أنه قال: سأكون هناك في التاسعة بالضبط.

17

ادّعى بيريرا أنه، في التاسعة صباحاً، نزل الأدراج المؤدية إلى الشاطىء التابع للمستوصف. كانت قد حُفرت حفرتان لمسبحين هائلين في الصخور المحاذية للشاطىء، وأمواج المحيط تدخل إليهما على هواها. كان الحوضان مليئين بطحالب طويلة، لامعة، دهنية، تشكل طبقة كثيفة على وجه الماء، وبعض الأشخاص يتخبطون فيها. قرب المسبحين، أقيمت حجرتان من الخشب مدهونتان بلون أزرق سماوي، إنهما حجرتا الثياب. رأى بيريرا الدكتور كاردوزو الذي كان يراقب المرضى في الأحواض ويعطيهم تعليمات حول كيفية التنقل. اقترب بيريرا منه وتمنى له نهاراً طيباً. ادّعى أنه كان يشعر بمزاج جيد، ويرغب بدخول هذه الأحواض، رغم أن الطقس كان بارداً على الشاطىء، وحرارة الماء لم تكن مثالية من أجل الاستحمام. طلب من الدكتور كاردوزو أن يزوده بثوب للاستحمام، لأنه نسي أن يحضر معه واحداً، ورجاه أن يجد له ثوباً على الطريقة القديمة، من النوع الذي يغطي البطن وقسماً من الجذع. هز الدكتور كاردوزو رأسه قائلاً: آسف يادوتّور بيريرا، ولكن عليك أن تتجاوز خجلك، فإن التأثير المفيد للطحالب، يفعل فعله خاصةً بالتّماس مع البَشَرة ، ومن الضروري أن تتيح للطحالب أن تدلك لك بطنك وجذعك. عليك أن ترتدي كلسوناً قصيراً. أذعن بيريرا ودخل

حجرة الملابس. خلع بنطلونه وقميصه كاكي اللون، وضعهما في الخزانة وخرج. كان الهواء بارداً فعلاً، لكنه منشط. اختبر بيريرا حرارة الماء بقدمه، ولم يجدها بالبرودة التي يتوقعها. دخل بحذر في الحوض، معانياً من بعض النفور بسبب كل تلك الطحالب التي تلتف حول الجسم. قَدِم الدكتور كاردوزو إلى طرف الحوض وبدأ يعطيه التعليمات. قال له: حرك ذراعيك كما لو أنك تمارس تمارين رياضة بدنية، ودلِّك بطنك وجذعك بالطحالب. نفذ بيريرا التعليمات بكل حرص إلى أن أحس بالإنهاك، فتوقف، بينما كان الماء يصل إلى رقبته، وراح يحرك يديه ببطء. سأله الدكتور كاردوزو: كيف نِمتَ الليلة؟ أجاب بيريرا: جيداً، لكني قرأت حتى وقت متأخر، أحضرت معي كتاباً لِـ ألفونس دوديه، هل تحب دوديه؟ اعترف الدكتور كاردوزو قائلاً: لاأعرفه جيداً. قال بيريرا: فكرت أن أترجم إحدى قصص *حكايا الاثنين*، وأود أن أنشرها في الـ *لسبوا*. قال الدكتور كاردوزو: اروِها لي. قال بيريرا: حسناً، إنها بعنوان *الصف الأخير*، وتتحدث عن معلم في قرية فرنسية بالألزاس، تلامذته من أبناء الفلاحين، صِبية فقراء عليهم أن يعملوا في الحقول، فيضطرون للتغيب عن الدروس، ويشعر المعلم باليأس. تقدم بيريرا بضع خطوات إلى الأمام بحيث لايدخل الماء في فمه، وتابع: في النهاية، نصل إلى اليوم الأخير من أيام المدرسة، وكانت الحرب الفرنسية- البروسية قد انتهت. راح المعلم ينتظر دون أمل كبير، وصول تلميذ من التلاميذ، وبدلاً من ذلك، يصل رجال القرية، الفلاحون الكبار في السن. يأتون لتكريم المعلم الفرنسي الذي يستعد للسفر، لأنهم يعلمون أن الألمان سيحتلون أرضهم في اليوم التالي، فكتب المعلم عندئذٍ على السبورة «تعيش فرنسا»، ومضى بهذا الشكل دامع العينين، تاركاً قاعة يخيم عليها تأثر كبير. تخلص بيريرا من الطحالب الملتفة حول ذراعيه وسأل: ماقولك، دكتور كاردوزو؟ أجاب الدكتور كاردوزو: جميل، لكني لاأعلم إذا كان الناس في

البرتغال يحبون أن يقرؤوا، اليوم، عبارة «تعيش فرنسا»، نظراً للظروف الراهنة. من يدري، دوتّور بيريرا، إن لم تكن أنت الآن تفسح المجال لأناك المهيمنة الجديدة كي تأخذ مكانها. يبدو لي أنّي ألمح أنا مهيمنة جديدة. قال بيريرا: ولكن ما الذي تقوله يادكتور كاردوزو: المسألة تتعلق بنص من القرن التاسع عشر، هذا شيء من الماضي. قال الدكتور كاردوزو: نعم، ولكن حتى من هذا المنظور، فالنص عبارة عن قصة معادية لألمانيا، وفي بلد مثل بلدنا، لاأحد يمس ألمانيا بسوء، أرأيت التحية التي فرِضت بشكل إلزامي أثناء المناسبات الرسمية؟ جميعهم يحيُّون بذراع ممدودة، مثل النازيين. قال بيريرا: سنرى جيداً، لكن الـ*لِشبُوا* صحيفة مستقلة. ثم سأل: هل أستطيع الخروج؟ رد الدكتور كاردوزو: عشر دقائق أخرى، بما أنك الآن هنا، ابقَ كل الوقت المخصص للعلاج، ولكن اعذرني مامعنى صحيفة مستقلة في البرتغال؟ أجاب بيريرا: يعني صحيفة غير مرتبطة بأية حركة سياسية. قال الدكتور كاردوزو: ربما كان الأمر كذلك، لكن مدير صحيفتك، ياعزيزي الـ دوتّور بيريرا، هو من رجال النظام، إنه يظهر في جميع المناسبات الرسمية، ويكاد الناظر إلى طريقته في مد ذراعه يقول إنه يريد أن يرمي بها مثلما يُرمى الرمح. أقر بيريرا بالأمر وقال: هذا صحيح، لكنه في الحقيقة، ليس بالرجل السيء، فقد ترك لي كل الصلاحية فيما يتعلق بالصفحة الثقافية. اعترض الدكتور كاردوزو قائلاً: هذا سهل، هناك على كل حال، الرقابة الوقائية. فكل يوم، وقبل أن تصدر صحيفتك، تمر بروفاتها عبر قسم إجازة الطبع في الرقابة الوقائية، وإذا كان هنالك مالاينشر، فبوسعك الاطمئنان بأنه لن ينشر. ربما يتركون مكانها شاغراً أبيض، ولقد سبق لي أن رأيت صحفاً برتغالية فيها مواضع شاغرة بيضاء كبيرة. وهذا أمر يجعل المرء يشعر بغضب عارم وكآبة كبيرة. قال بيريرا: أفهم. سبق لي أيضاً أن رأيتها، ولكن ذلك لم يحدث بعد في الـ*لِشبُوا*. رد الدكتور كاردوزو بلهجة ممازحة، بأن

هذا قد يحدث، والأمر يتعلق بالأنا المهيمنة التي ستنتصر في اتحاد أرواحك. ثم تابع: أتدري ماذا يا دوتّور بيريرا؟ إذا أردتَ مساعدة الأنا المهيمنة التي تعمل الآن على انتزاع الغلبة لنفسها، فربّما يتعين عليك الذهاب إلى مكان آخر، مغادرة هذا البلد، وبهذه الطريقة أظن أن صراعاتك مع نفسك ستكون أقل. أنت في الحقيقة قادر على ذلك، فأنت محترف وجاد، وتتكلم الفرنسية جيداً، وأرمل، ولا أطفال لديك. ما الذي يربطك بهذا البلد؟ أجاب بيريرا: تربطني حياة عشتها في الماضي، والحنين. وأنت يا دكتور كاردوزو، لِمَ لا تعود إلى فرنسا، فأنت في الواقع، درستَ فيها، وثقافتك فرنسية. أجاب الدكتور كاردوزو: لا أستبعد ذلك، وأنا على اتصال بعيادة للعلاج الطبيعي بحمامات البحر في سان مالو. يُحتَمل جداً أن يقر قراري بين اللحظة والأخرى. سأل بيريرا: والآن، هل أستطيع الخروج؟ قال الدكتور كاردوزو: مر الوقت دون أن ننتبه، وبقيتَ في حوض العلاج، عشر دقائق فوق المطلوب، اذهب فقط لارتداء ثيابك، ما قولك أن نتغدى معاً؟ وافق بيريرا قائلاً: بكل طيبة خاطر.

ادّعى بيريرا أنه، ذلك اليوم، تناول طعامه بصحبة الدكتور كاردوزو، وأنه عمل بنصيحته واختار سمكةً مسلوقة. تكلما عن الأدب، عن موباسان، و دوديه، وعن فرنسا التي كانت بلداً عظيماً. انسحب بيريرا بعدها إلى غرفته، ونام ربع ساعة قيلولة، أغمَض عينيه قليلاً، ثم راح ينظر إلى حزم الضوء والظل التي كانت تنبعث من خلال الأباجورات على السقف. عند العصر، نهض، اغتسل، لبس ثيابه، وضع ربطة عنقه السوداء وجلس أمام صورة زوجته. قال لها: التقيت بطبيب ذكي، يدعى كاردوزو، درس في فرنسا، شرح لي نظريته عن النفس الإنسانية. هي بالأحرى، نظرية فلسفية فرنسية. يبدو أن هناك اتحاداً للأرواح داخل كل منا، وأنّه، من وقت لآخر، هناك أنا مهيمنة تقود الاتحاد. يدّعي الدكتور كاردوزو أني بصدد تغيير أناي المهيمنة، بالطريقة التي تغير بها الأفعى جلدها، وأن

هذه الأنا المهيمنة ستغير حياتي. لا أعلم مدى صحة ذلك، وفي الحقيقة، لست مقتنعاً جداً بالأمر، ولكن لا بأس، صبراً، وسوف نرى.

جلس إلى الطاولة وبدأ يترجم قصة *الصف الأخير* لِ دوديه. كان قد جلب معه قاموسه الذي يساعده جداً. إلا أنه لم يترجم منها سوى صفحة واحدة، لأنه أراد أن يفعل ذلك بهدوء، ولأن تلك القصة كانت بمثابة رفيق له. وفي الواقع فقد كان بيريرا، طيلة الأسبوع الذي أمضاه في عيادة العلاج الطبيعي، يمضي فترات بعد الظهر في ترجمة قصة دوديه، كما ادّعى.

كان أسبوعاً جميلاً، من الحمْية، والعلاج الطبيعي، والراحة. أضفى عليه البهجةَ وجودُ الدكتور كاردوزو الذي كان يعقد معه على الدوام أحاديث حيوية وهامة، خاصة في الأدب. كان أسبوعاً فاتَ كأنه لحظة. نُشرَ الجزء الأول من قصة *أونورين* لِ بلزاك، في الـ *لِشبَوا*، يوم السبت، وهنأه الدكتور كاردوزو عليها. لم يتصل به المدير ولا مرة واحدة، مما يعني أن كل شيء في الصحيفة يسير على مايرام. كما لم يتصل به مونتيرو روسي، ولا مارتا أيضاً. في الأيام الأخيرة، كفّ دوتّور بيريرا عن التفكير بهما تقريباً. ادّعى بيريرا أنه حين غادر المشفى كي يستقل قطار لشبونة، كان يشعر بأنه نشيط وفي أحسن حال، وأن وزنه نقص أربعة كيلو غرامات.

18

ادّعى بيريرا أنه عاد إلى لشبونة، وأن قسماً كبيراً من شهر أيار مرّ كما لو أن شيئاً لم يكن. لم تكن مُدَبِّرةُ بيته قد عادت بعد. وجد في علبة بريده بطاقة بريدية من مدينة سيتوبال، تقول: «أعود نحو منتصف أيلول، لأن أختي يجب أن تخضع لعمل جراحي لعلاج الدوالي. أفضل تحياتي. بيبداد.»

أقام بيريرا من جديد في شقته. لحسن الحظ، كان الطقس قد تغير ولم يعد حاراً جداً. عند المساء، يهب نسيم أطلسي قوي، يجبر المرء على ارتداء سترة. عاد إلى مكتب التحرير ولم يجد شيئاً جديداً تماماً. لم تعد البوابة تستاء منه، وصارت تحييه بمودة أكبر، لكن رائحة قلي كريهة ماتزال تنتشر أسفل الدرج. كان هناك بريد قليل: فاتورة كهرباء أوصلها إلى مكتب الصحيفة المركزي، و رسالة من شافس، امرأة في الخمسين من عمرها، تكتب قصصاً للأطفال، وتعرض قصة منها على الـ *لِشبُوَا*. قصة خيالية شخوصها من الجنيات والإلفات[1] ، لاتوجد أية صلةٍ لها بالبرتغال، ولابد أن السيدة نقلتها من بعض القصص الإيرلندية. كتب لها بيريرا رسالة لطيفة، يدعوها فيها للاستيحاء من الفولكلور البرتغالي، لأن

(1) إلفٌ: جني صغير في أساطير اسكنديناڤيا يرمز إلى الهواء والنار الخ...

الـ*لِشبُوَا*، كما قال لها، تتوجه إلى قراء برتغاليين وليس إلى قراء أنجلو- ساكسون. في أواخر الشهر، وصلت رسالة من أسبانيا. موجهة إلى مونتيرو روسي، وكتب على غلافها: السيد مونتيرو روسي ع/ط دوتُور بيريرا، شارع رودريغو دا فونسيكا 66، لشبونة، البرتغال. شعر بيريرا بإغراء فتحِها. كاد ينسى مونتيرو روسي، هذا ماكان يظنه على الأقل، ووجد مسألة أن يعمد الشاب لاتخاذ مكتب تحرير الصفحة الثقافية في الـ*لِشبُوَا*، عنواناً له لتلقي الرسائل، أمراً لايصدق. وضعها في ملف «مقالات تأبينية» دون أن يفتحها. عند الظهر، كان يتغدى في مقهى أوركيديا، لكنه لم يعد يأخذ عجة بالأعشاب، لأن الدكتور كاردوزو منعه من تناولها، ولم يعد يتناول شراب الليمون، بل يتناول سلطات الأسماك، ويشرب المياه المعدنية. كانت أجزاء قصة *أونورين* قد نشرت بالكامل، ولقيت نجاحاً كبيراً لدى الجمهور. بل إن بيريرا ادّعى أنه تلقّى، برقيتين، من مدينتي تافيرا وإستريموز، كانت الأولى تقول إن القصة رائعة، وتقول الثانية إن التوبة شيء علينا جميعاً التفكير فيه، والبرقيتان تنتهيان بكلمة شكراً. فكر بيريرا أنه ربما يكون أحد ما قد تلقى الرسالة الموضوعة في القارورة، من يدري. واستعد لتحرير الصيغة النهائية من ترجمة قصة ألفونس دوديه. اتصل به المدير صباح أحد الأيام ليهنئه على قصة بلزاك، ليقول له إن مكتب التحرير المركزي قد تلقى سيلاً من رسائل المديح. فكر بيريرا أن المدير لا يمكنه أن يتلقى رسالة القارورة، وابتهج في سره. ذلك أن الموضوع في الحقيقة، هو موضوع رسالة مشفرة بالفعل، ولايستطيع تلقيها سوى من هو جدير بسماعها، وليس من يستلمها. سأل المدير: والآن يادوتُور بيريرا، ماذا تعدُّ لنا الآن من جديد؟ أجاب بيريرا: انتهيت للتو من ترجمة قصة لِ دوديه، وأظن أنها ستكون جيدة. قال المدير: أرجو ألا تكون *الأرلِيزية*، مشيراً برضى، إلى إحدى معارفه الأدبية النادرة، فهي قصة جريئة بعض الشيء، ولاأعلم إن كانت تناسب قراءنا.

اكتفى بيريرا بالإجابة بقوله لا، إنها قصة من *حكايا الاثنين*، بعنوان *الصف الأخير*، لاأعلم إن كنت تعرفها، إنها قصة فيها روح وطنية. أجاب المدير: لا أعرفها، ولكنها إن كانت قصة فيها روح وطنية فهذا ممتاز، فنحن جميعاً بحاجة للروح الوطنية في هذه الأوقات السائدة. الروح الوطنية شيء مؤات. حياه بيريرا وأغلق الخط. كان يستعد لأخذ نصه المطبوع على الآلة الكاتبة، إلى المطبعة، حين رن الهاتف من جديد. كان بيريرا قرب الباب وقد ارتدى سترته. قال صوت نسائي: آلو، طاب يومك دوتّور بيريرا، أنا مارتا، كنت بحاجة لرؤيتك. أحس بيريرا بضربة في قلبه وسأل: مارتا، كيف حالك، وكيف حال مونتيرو روسي؟ قالت مارتا: سأحكي لك يادوتّور بيريرا، أين أستطيع رؤيتك هذا المساء؟ فكر بيريرا لحظة وكاد يقول لها أن تأتي إلى بيته، ثم فكر أنه من الأنسب ألا يكون ذلك في بيته، وأجاب: في مقهى أوركيديا، في الثامنة والنصف. قالت مارتا: اتفقنا، لقد قصصت شعري وصبغته بلون أشقر، نلتقي في مقهى أوركيديا في الثامنة والنصف، على كل حال، مونتيرو روسي على ما يرام ويرسل لك مقالاً.

خرج بيريرا كي يتوجه إلى المطبعة. ادّعى أنه كان يحس بالقلق. فكر أن يعود إلى المكتب بانتظار ساعة العشاء. ولكنه أدرك أنه بحاجة للعودة إلى بيته لأخذ حمام بارد. استقل سيارة أجرة وأجبر السائق على أن يصعد به المنحدر الذي يؤدي إلى بيته، فعادةً لايحب سائقو سيارات الأجرة التورط في صعود هذا المنحدر، بسبب صعوبة المناورة فيه، مما اضطر بيريرا لأن يعد السائق بإكرامية، لأنه كان منهكاً، كما ادّعى. دخل بيته، وملأ أولاً حوض الاستحمام بالماء البارد. غطس فيه وراح يدلك بطنه بعناية، كما علمه الدكتور كاردوزو أن يفعل. وضع عليه مئزراً للحمام وذهب إلى مدخل البيت، أمام صورة زوجته. قال لها: لقد ظهرت مارتا مجدداً، يبدو أنها قصت شعرها وصبغته بالأشقر، وهنا الغريب في الأمر، هي

تحمل لي معها مقالاً من مونتيرو روسي، لكن مونتيرو روسي مايزال بالطبع منشغلاً بأموره. إن هؤلاء الشبان يسببون لي الهم، لابأس، لا يهم، سأحكي لك التطورات فيما بعد.

في الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة، ادّعى بيريرا أنه دخل إلى مقهى أوركيديا. السبب الوحيد الذي جعله يتعرف على مارتا، في الشابة النحيلة والشقراء ذات الشعر القصير والجالسة قرب المروحة، هو أنها كانت ترتدي الثوب نفسه الذي ترتديه في كل مرة، ودون ذلك ما كان ببساطة ليتعرف عليها. بدت مارتا مختلفة، شعرها الأشقر والقصير بطرفه المقلوب وخصلتي الشعر المسطحتين فوق الأذنين، أعطتها شكلاً لعوباً وأجنبياً، شكلاً فرنسياً ربما. ثم إنها قد نحفت حتماً، عشر كيلو غرامات على الأقل، فراحت تظهر في كتفيها، اللذين يذكر بيريرا أنهما كانا ناعمين ومدورين، عظمتان بارزتان، مثل جناحي دجاجة. جلس بيريرا مقابلها وقال لها: مساء الخير يامارتا، ماالذي حدث؟ أجابت مارتا: قررت أن أغير شكلي، هذا ضروري في بعض الظروف، وأصبح ضرورياً بالنسبة لي أن أحوّل نفسي إلى شخص آخر.

خطر لِ بيريرا، دون سبب حقيقي، أن يطرح عليها سؤالاً. لايعرف لماذا يطرحه عليها. ربما لأنها كانت شقراء جداً واصطناعية جداً، وأنه كان من الصعب عليه أن يتعرف فيها على الشابة التي عرفها، ربما لأنها كانت من وقت لآخر، تنظر حولها نظرة عابرة خاطفة، كما لو أنها تنتظر أحداً، أو تشعر بالخوف. ما حدث هو أن بيريرا سألها: هل اسمك مازال مارتا؟ أجابت مارتا: بالنسبة لك طبعاً مازال اسمي مارتا، لكن لدي جواز سفر فرنسي، أدعى فيه ليز ديلونيه، ومهنتي الرسم، وأنا موجودة في البرتغال لغرض رسم مناظر طبيعية بالألوان المائية، مع أن السبب الحقيقي هو السياحة.

شعر بيريرا برغبة قوية أن يطلب طبق عجة بالأعشاب ويتناول شراب الليمون، كما ادّعى. فسأل مارتا: ماقولك أن يأخذ كل منا طبق عجة بالأعشاب؟ أجابت مارتا: بكل سرور، لكني قبل ذلك آخذ كأس بورتو صِرف، بطيبة خاطر. قال بيريرا: أنا أيضاً، وطلب كأسيْ بورتو. قال بيريرا: أكاد أحس أن هناك مشاكل. مارتا، أنت لديك متاعب، بإمكانك أن تبوحي لي بها. قالت مارتا: لِنَقُلْ إن هذا صحيح، نعم، لكن هذا النوع من المتاعب يعجبني، أشعر فيها أني حرة. في الحقيقة، هذا هو شكل الحياة التي اخترتها. باعد بيريرا مابين ذراعيه وقال: إذا كنت مسرورة، فهذا شأنك. ومونتيرو روسي، أتخيل أن لديه متاعب هو الآخر، لأني لم أعد أسمع صوته. ماذا حصل له؟ قالت مارتا: عن نفسي، أتحدث، أما عن مونتيرو روسي، فلا، لا أجيب إلا عما يتعلق بي، إذا كان مونتيرو روسي لم يسمعك صوته حتى الآن، فهذا يعني أنّ لديه مشاكل. إنه ما يزال حالياً خارج لشبونة، يتنقل في ألنتيخو، ربما كانت مشاكله أخطر شأناً من مشاكلي، وما زال بحاجة للنقود ولهذا السبب أرسل لك مقالاً، يقول إنه لزاوية «حدث ذات يوم». إذا أردت، يمكنك أن تعطيني النقود، وأنا أتكفل بإيصالها له.

كان بيريرا يودّ لو يجيب ويقول: حسناً، فلنَرَ تلك المقالات العظيمة، المتشابهة، تأبينيةً كانت أو لزاوية الحدث تلك. ومازال أدفع له من جيبي الخاص، ذلك الـ مونتيرو روسي. لاأعلم ماالسبب الذي يمنعني من صرفه أنا الذي اقترحت عليه أن يكون صحفياً، وأغريته بمهنة. إلا أنه لم يقل شيئاً من كل ذلك. أخرج حاملة نقوده وتناول ورقتين نقديتين وقال: أعطه إياهما، والآن أعطني المقال. تناولت مارتا ورقة من حقيبتها ومدتها له. قال بيريرا: اسمعيني يامارتا، أود أن أعلمك أنك تستطيعين الاعتماد علي في بعض الأمور، حتى إذا كنتُ أريد البقاء بعيداً عن مشاكلكم، فأنا لاأهتم بالسياسة كما تعلمين. على أية حال، إذا اتصلتِ بِـ مونتيرو روسي،

قولي له أن يأتي لأراه، ربما استطعت أن أساعده هو أيضاً، بطريقتي. قالت مارتا: أنت عون كبير لنا جميعاً، يادوتّور بيريرا، وقضيتنا لن تنساك. أنهيا تناول العجة، وقالت مارتا إنها لا تستطيع البقاء أكثر. حياها بيريرا وذهبت مُنْسَلَّةً برشاقة. بقي بيريرا جالساً إلى الطاولة الصغيرة وطلب كأس شراب ليمون آخر. كان يود لو يتحدث عن كل هذا مع الأب أنطونيو أو مع الدكتور كاردوزو، لكن الأب أنطونيو ينام حتماً في هذه الساعة، والدكتور كاردوزو في باريدي. شرب كأسه وسدد حسابه، وحين اقترب النادل سأله: ماالذي يحدث؟ قال مانويل: أشياء لاتصدق، تحدث أشياء لاتصدق يادوتّور بيريرا. وضع بيريرا يده فوق ذراع النادل سائلاً إياه: أشياء لاتصدق، بأي معنى؟ أجاب النادل: ألا تدري ماذا يحدث في أسبانيا؟ قال بيريرا: أجهل ذلك. قال مانويل: يبدو أن كاتباً فرنسياً كبيراً قد فضح القمع الفرانكوي في أسبانيا، وانفجرت فضيحة مع الفاتيكان. سأل بيريرا: وما اسم ذلك الكاتب الفرنسي؟ أجاب مانويل: لايحضرني الاسم الآن، إنه كاتب تعرفه حتماً، اسمه بيرنان، أو برناديت، شيء من هذا القبيل. هتف بيريرا عجِباً وفَرِحاً: برنانوس، اسمه برنانوس!؟ أجاب مانويل، بالضبط، هذا هو اسمه بالضبط. قال بيريرا بافتخار: إنه كاتب كاثوليكي كبير، كنت أعرف أنه سيتخذ موقفاً، فهو ذو أخلاقيات حديدية صارمة. فكر بيريرا عندئذ أنه قد يستطيع، ربما في الـ*لِشبُوَا*، نشر فصل أو فصلين من *مذكرات خوري في الريف*، التي لم يسبق أن ترجمت إلى اللغة البرتغالية.

حيّا مانويل وترك له إكرامية جيدة. كان بوده أن يتحدث مع الأب أنطونيو، إلا أن الأب أنطونيو ينام في هذه الساعة، فهو ينهض دائماً في السادسة صباحاً لكي يحيي القداس في كنيسة مرسيس، كما ادّعى بيريرا.

19

نهض بيريرا صباح اليوم التالي باكراً جداً، وذهب للقاء الأب أنطونيو. فاجأه في سكريستيّة[1] الكنيسة، وهو يزيح الزينات المقدسة. كانت السكرستيّة باردةً جداً، وكان هناك لوحات دينية ونذور معلقة على الجدران.

قال بيريرا: صباح الخير يا أبانا، أنا هنا. دمدم الأب أنطونيو قائلاً: بيريرا، لم نعد نراك، أين كنت منحشراً إذن؟ قال بيريرا مبرِّراً: كنت في باريدي، أمضيت أسبوعاً في باريدي. قال الأب أنطونيو بتعجب: في باريدي!؟ وماذا كنت تفعل في باريدي؟ أجاب بيريرا: كنت في مستوصف للعلاج بحمامات البحر، لإجراء حمامات بالطحالب واتباع علاج طبيعي. طلب منه الأب أنطونيو أن يساعده في نزع بطرَشيله[2] وقال له: تأتيك أحياناً مثل هذه الأفكار. أضاف بيريرا: نَقُصَ وزني أربعة كيلو غرامات، والتقيت بطبيب كلمني عن نظرية مثيرة للاهتمام في الروح. سأل الأب أنطونيو: أمن أجل هذا جئت؟ أقر بيريرا وقال: جزئياً، لكني أود التحدث في أشياء أخرى

(1) سكرستيّا: مكان خاص في هيكل الكنيسة الكاثوليكية، تحفظ فيه اللوازم والزينات اللازمة لعمل الكاهن.

(2) بطرشيل: قطعة من القماش منقوشة ومقصبة يضعها الكاهن على صدره ويعلقها في عنقه عند الخدمة الدينية.

أيضاً. قال الأب أنطونيو: تكلم إذن. بدأ بيريرا بالكلام وقال: حسناً، إنها نظرية لفيلسوفين فرنسيين، هما في الوقت نفسه عالما نفس، ويقولان بأن مافي أنفسنا ليس روحاً واحدة، بل اتحاداً لأرواح تقودها أنا مهيمنة، وهذه الأنا المهيمنة تتغير من وقت لآخر، بحيث نصل إلى نموذج، ولكنه ليس نموذجاً ثابتاً، إنه نموذج متغير. قال الأب أنطونيو: اصغ إلي جيداً يابيريرا، أنا فرنسيسكاني، و شخص بسيط، يبدو لي أنك بصدد التحول إلى هرطوقي. الروح الإنسانية واحدة وغير قابلة للتقسيم، الإله هو الذي منحنا إياها. قال بيريرا: نعم، ولكنّا إن وضعنا كلمة الشخصية بدلاً من الروح، كما يريد الفلاسفة الفرنسيون، فجأةً، لا يعود هناك هرطقة. وقد أقنعت نفسي أنه ليس لدينا شخصية واحدة، لا، بل لدينا عدة شخصيات تتعايش تحت قيادة أنا مهيمنة. اعترض الأب أنطونيو وقال: تبدو لي هذه النظرية مضللة وخطيرة، فالشخصية مرتبطة بالروح، والروح واحدة ولاتتجزأ، وأشم في كلامك رائحة الهرطقة. اعترف بيريرا قائلا: ومع ذلك أشعر بنفسي مختلفاً عما كنت عليه قبل بضعة شهور، أفكر بأشياء ما كنت لأفكر بها إطلاقاً، وأفعل أشياء ما كنت لأفعلها يوماً. قال الأب أنطونيو: سيحدث لك شيء. قال بيريرا: تعرفت على شخصين، شاب وشابة، وربما كنت قد تغيرت بمعرفتهما. أجاب الأب أنطونيو: هذا أمر يحدث، فللأشخاص تأثير علينا، هذا يحدث. قال بيريرا: لا أدري كيف يمكنهما أن يؤثرا علي، فهما عبارة عن رومانسيين بائسين، بلا مستقبل، أنا من يجب أن يؤثر عليهما، لأنني أنا من يقدم لهما الدعم. حتى فيما يتعلق بالشاب، أنا عملياً من يعتني به، لا أكفُّ عن إعطائه النقود من جيبي الخاص. لقد وظفته كمتدرب، إلا أنه لم يكتب مقالاً واحداً يمكن أن ينشر. قل لي يا أبانا، أتعتقد أن من الجيد لي أن أعترف؟ سأل الأب أنطونيو: هل ارتكبت خطيئة الجسد؟ أجاب بيريرا: إن الجسد الوحيد الذي أعرفه هو ذاك الذي أحمله معي. استخلص الأب أنطونيو قائلاً: اصغ إلي إذن

يابيريرا، لا تُضِعْ لي وقتي، أمامي واجب تلقي الاعتراف، لذا، علي أن أركّز، وألا أجهد نفسي، وبعد قليل علي الذهاب لعيادة مرضاي. دعنا لا نتكلم في موضوع محدد، بل في العموميات، ولكن ليس على شكل اعتراف، بل كأصدقاء.

جلس الأب أنطونيو على كرسي السكرستيّة، وجلس بيريرا إلى جانبه. قال بيريرا: اسمعني يا أبانا أنطونيو، أنا أؤمن بالله، الأب الكلي القدرة، أتناول القرابين المقدسة، وأحترم الوصايا الإلهية، وأحاول جاهداً ألا أقع في الخطيئة، وحتى إن لم أذهب أيام الآحاد إلى القداس، فلا يعود ذلك لِقِلَّةِ الإيمان، بل إلى الكسل لاغير. أظن أنّي كاثوليكي جيد، وتهمُّني تعاليم الكنيسة جداً، ومع ذلك فأنا مضطرب قليلاً في هذه الأيام. ثم إني، رغم كوني صحفي، لا تتوافر لدي معلومات عما يجري في العالم، وأنا الآن محتار جداً، لأنه يبدو لي أنّ سجالاً كبيراً يجري بخصوص مواقف الكتّاب الكاثوليكيين الفرنسيين من الحرب الأهلية الأسبانية، أود لو تطلعني قليلاً على مايجري، أبانا أنطونيو، لأنك تعرف هذه الأشياء معرفة جيدة، وأريد أن أعرف كيف أتصرف كيلا أكون هرطوقياً. قال الأب أنطونيو متعجباً: ولكن في أي عالم تعيش يابيريرا! قال بيريرا محاولاً تبرير جهله: الواقع أني قضيت أسبوعاً في باريدي، ولم أشتر، في هذا الصيف، أية صحيفة أجنبية، والصحف البرتغالية لاتساعد في معرفة الكثير، والأخبار الوحيدة التي أعرفها هي من الثرثرات التي تدور في الحانات.

ادّعى بيريرا أن الأب أنطونيو نهض ووقف مقابله وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ بدا لبيريرا مهدِّداً، وقال: اسمع، الوقت عصيب وعلى كل شخص أن يختار. أنا رجل كنيسة، وعلي أن أمتثل للتسلسل الكنسي، أما أنت فإنك حر في خيارك الشخصي، حتى لو كنت كاثوليكياً. قال بيريرا متوسلاً: اشرح لي إذن، لأني أريد أن

أختار، لكني غيرُ مُلِمٍّ بما يجري. تمخط الأب أنطونيو، صالب يديه فوق صدره وسأل: أتعرف مشكلة رجال الدين الباسكيين؟ أقر بيريرا قائلاً: لا، لا أعرفها. قال الأب أنطونيو: كل شيء بدأ برجال الدين الباسكيين. بعد قصف غيرنيكا، أعلن رجال الدين الباسكيون، الذين يُعَدُّون الأكثر مسيحيةً في أسبانيا، أنهم يقفون مع الجمهورية. تمخط الأب أنطونيو متأثراً وتابع: في ربيع العام الماضي، نَشَرَ كاتبان فرنسيان لامعان، هما فرانسوا مورياك وجاك ماريتان، بياناً لصالح الباسكيين. قال بيريراً مندهشاً: مورياك! لقد قلت إنه يجب إعداد مقال تأبيني عن مورياك لوقت الحاجة، إنه رجل جيد، لكن مونتيرو روسي لم يستطع أن يفعل ذلك. سأل الأب أنطونيو: ومن يكون مونتيرو روسي؟ أجاب بيريرا: إنه المتدرب الذي وظفته، لكنه ليس قادراً أن يكتب لي مقالات تأبينية عن الكتّاب الكاثوليك الذين اتخذوا مواقف سياسية جيدة. سأل الأب أنطونيو: ولِمَ تريد كتابة مقال تأبيني عن مورياك؟ دع المسكين مورياك يعِش، إننا بحاجة إليه، لماذا تريد أن تميته؟ قال بيريرا: لا، بالطبع ليس هذا ماأريد، أتمنى أن يعيش حتى المئة عام، ولكن لنفترض أنه مات بين لحظة وأخرى، فسيكون هناك صحيفة واحدة في البرتغال على الأقل ترثيه في الوقت المناسب، وتلك الصحيفة ستكون الـ *لِشبُوا*. ومهما كان، اعذرني أبانا أنطونيو على مقاطعتك، تَفضلْ تابع كلامك. قال الأب أنطونيو: حسناً، تعقدت المشكلة مع الفاتيكان، الذي قال بأن آلاف المتدينين الأسبان قتلوا بيد الجمهوريين، وأن الكاثوليكيين الباسكيين هم «مسيحيون حمر»، ويجب حرمانهم، وهذا ماتم بالفعل. إلى هذا أُضيفَ كلوديل، بول كلوديل الشهير، الكاتب الكاثوليكي أيضاً، الذي كتب قصيدة غنائية «إلى الشهداء الأسبان» كمقدمة شعرية لكتيب أدبي دعائي، نتِن وسامّ لأحد عملاء الفرانكويين في باريس. قال بيريرا: كلوديل، بول كلوديل؟ تمخط الأب أنطونيو مرة أخرى وقال: هو بعينه، وأنت يابيريرا، ماذا

تستخلص من ذلك؟ أجاب بيريرا: لا أعرف كيف أجيب على هذا السؤال المفاجئ، هو أيضاً كاثوليكي، وأخذ موقفاً مغايراً، لقد اختار. قال الأب أنطونيو متعجباً: ولكن كيف لا تعرف كيف تجيب على هذا السؤال المفاجئ يابيريرا، هذا الـ كلوديل هو ابن عاهرة، هكذا هو، وآسَفُ لقول كلام من هذا النوع في مكان مقدس، لقد أردت أن أقول لك هذا الكلام في الساحة العامة. سأل بيريرا، وماذا بعد؟ تابع الأب أنطونيو قائلاً: ثم اتخذ كبار كهنة الكنائس الأسبانية، وعلى رأسهم الكردينال غوما، مطران طليطلة، قراراً بإرسال رسالة مفتوحة إلى أساقفة العالم بأجمعه، فهمتَ يابيريرا؟ العالم بأجمعه، كما لو أن جميع أساقفة العالم فاشيون قذرون مثلهم، لكي يقولوا إن آلاف المسيحيين في أسبانيا حملوا السلاح على مسؤوليتهم الشخصية من أجل إنقاذ مبادئ الدين. قال بيريرا: نعم، ولكن ماذا عن الشهداء الأسبان من رجال الدين الذين قتلوا؟ صمت الأب أنطونيو لحظة ثم قال: قد يكونون شهداء، ولكنهم كلهم على أية حال أناس كانوا يتآمرون ضد الجمهورية، والجمهورية كانت دستورية، صوَّت الشعب لصالحها، وجاء فرانكو بانقلاب، إنه قاطع طريق. سأل بيريرا: وماذا عن برنانوس؟ قال الأب أنطونيو: هو أيضاً كاتب كاثوليكي، إنه الوحيد الذي يعرف أسبانيا بحق، فقد بقي فيها منذ عام أربع وثلاثين حتى العام الماضي، وكتب عن مذابح الفرانكويين. الفاتيكان لا يستطيع تحمله لأنه شاهد حقيقي. قال بيريرا: أتعرف أبانا أنطونيو، أفكر بنشر فصل أو فصلين من «*يوميات خوري في الريف*»، في الصفحة الثقافية من الـ *لِشبُوَا*، فما رأيك؟ أجاب الأب أنطونيو: فكرة رائعة، لكني لاأدري إن كانوا سيسمحون لك بنشر النص، فـ برنانوس ليس محبوباً أبداً في هذا البلد، لأنه لم يكتب أشياء رقيقة جداً عن كتيبة فيرياتو[1] ، تلك

---

(1) فيرياتو، هو بطل برتغالي في النضال ضد الغزو الروماني. أطلق اسمه على كتيبة في الجيش البرتغالي أرسلت لدعم حزب فرانكو.

الوحدة البرتغالية التي ذهبت إلى أسبانيا لتقاتل إلى جانب فرانكو.
والآن اعذرني يا بيريرا، علي أن أذهب إلى المستشفى، لأن مرضاي بانتظاري.

نهض بيريرا واستأذن بالانصراف قائلاً: إلى اللقاء أبانا أنطونيو، ولا تؤاخذني إن كنت أخذت منك هذا الوقت كلّه، في المرة القادمة سآتي لأعترف. رد الأب أنطونيو: لستَ بحاجة لذلك، فكر أولاً بارتكاب خطيئة ما، ثم تعال بعدها لتعترف، ولكن لاتُضِع لي وقتي بلا طائل.

خرج بيريرا وتسلق بمشقة شارع إمبرنسا ناسيونال. حين وصل أمام كنيسة سان ماميدي، جلس على أحد مقاعد الساحة الصغيرة. وأمام الكنيسة، رسم على صدره إشارة الصليب، ثم مدَّ رجليه كي يستفيد من البرودة قليلاً. اشتهى كأس شراب ليمون، وكان هناك مقهى صغير قريب مناسب للغرض تماماً. إلا أنه تمالك نفسه واكتفى بالراحة في الظل. خلع حذاءه وأنعش قدميه قليلاً. توجه بعد ذلك بخطى بطيئة نحو مكتب التحرير مستعيداً ذكرياته. ادّعى بيريرا أنه فكر بطفولته، التي قضاها في بوفوا دو فارثيم مع جدَّيه، كانت طفولة سعيدة، أو أنه يعتبرها سعيدة. إلا أنه لايريد الكلام عن طفولته، لأنه يدّعي أن هذا أمر لا شأن له بهذه القصة ولا بهذا اليوم الذي هو نهاية شهر آب، حيث يميل الصيف إلى الانتهاء، ويشعر هو بالضياع الشديد.

على السلالم، التقى بالبوابة التي حيته بود وقالت له: طاب يومك دوتّور بيريرا، لا يوجد بريد لك هذا الصباح، ولا مكالمات هاتفية أيضاً. سأل بيريرا مبهوتاً: مكالمات هاتفية، كيف؟ هل دَخلتِ إلى المكتب؟ قالت سيليست بهيئة منتصرة: لا، لكن عمال الهاتف جاؤوا هذا الصباح يرافقهم شرطي، ووصلوا هاتفك بالبهو، وقالوا إنه من المفيد أن يتلقى أحد ما المكالمات الهاتفية، في حال عدم وجود أحد

في المكتب، وقالوا إنني الشخص الذي يمكن أن يقوم بهذا العمل. تمنى بيريرا لو يقول، أنتِ الشخص الذي يمكنه القيام بهذا العمل ، إلى حد بعيد، بالنسبة لهؤلاء الناس، لكنه لم يقل شيئاً. سأل فقط: وإذا كان علي أن أجري مكالمة هاتفية؟ أجابت : عليك المرور عبر السنترال، وفي الوقت الحاضر أنا هي السنترال، وعليك أن تطلب أرقام مكالماتك مني. أوه! دوتّور بيريرا، أنا لم أُرِدْ ذلك، فأنا أعمل طيلة فترة الصباح، وعلي أن أعد الغداء لأربعة أشخاص، لدي أربعة أفواه علي أن أطعمها، وفضلاً عن الأطفال الذين يكتفون بالقليل، فإن لدي زوجاً متطلباً جداً، يكون جائعاً جوع الذئاب ويُظهر الكثير من التطلب حين يعود من مركزالشرطة في الساعة الثانية. أجاب بيريرا: يبدو هذا واضحاً من رائحة القلي التي تطفو في السلالم، ولم يضف شيئاً آخر. دخل مكتب التحرير، رفع سماعة الهاتف عن الجهاز، وأخرج من جيبه الورقة التي سلمته إياها مارتا مساء اليوم الفائت. كان مقالاً مكتوباً بخط اليد، بحبر أزرق سماوي، وفي الأعلى كتب عنوان «حدث ذات يوم». كان النص يقول: «منذ ثماني سنين، عام 1930، توفي في موسكو الشاعر الكبير فلاديمير ماياكوفسكي. قتل نفسه بطلقة مسدس، بسبب خيبة عاطفية. كان ابن مفتش حراج. بعد أن انتسب وهو في ريعان الشباب إلى الحزب البلشفي، أُوقِفَ ثلاث مرات، وعُذب على يد البوليس القيصري. كان داعية كبيراً لروسيا الثورية، وأحدَ أفراد جماعة المستقبليين الروس. قام بجولة في بلده، بواسطة القطار، وراح يلقي أشعاره على القرويين فأثار حماسة الشعب. كان فناناً، رساماً، شاعراً، ورجل مسرح. لم تترجم أعماله إلى البرتغالية، ولكن يمكن شراؤها مترجمة إلى الفرنسية من مكتبة شارع دو أورو في لشبونة. كان صديقاً للسينمائي العظيم إيزنشتاين، الذي عمل معه في أفلام عدة. ترك لنا أعمالاً هائلة من النثر والشعر والمسرح. نحتفي هنا بالديموقراطي الكبير وعدو القيصرية اللدود.»

أحس بيريرا، دون أن يكون الطقس حاراً جداً، بستارٍ من العرق يغلف رقبته. أراد أن يرمي بهذا المقال في المهملات، لأنه مقال غبي جداً. لكنه بدلاً من ذلك، فتح ملف «مقالات تأبين»، وأدخله ضمنه.

ارتدى سترته وفكر أنه آن أوان العودة إلى بيته، كما ادّعى.

20

ذلك السبت، ظهرت في الـ *لِشبُوَا* ترجمة قصة *الصف الأخير* لألفونس دوديه. كانوا في الرقابة قد تركوا النص يمر بسلام، وادّعى بيريرا أنه فكر أن بوسعه، في الواقع، كتابة عبارة تعيش فرنسا، وأن الدكتور كان مخطئاً. هذه المرة أيضاً لم يوقّع بيريرا تحت الترجمة. ادّعى بأنه امتنع إذ لا يتعين على مدير صفحةٍ ثقافية، كتابة اسمه على ترجمة قصة كما يرى، لأن هذا قد يشير للقراء بأنه هو في نهاية المطاف، الذي يعد الصفحة الثقافية، وهذا أمر يزعجه. إنها مسألة كبرياء، كما ادّعى.

قرأ بيريرا القصة بارتياح كبير، كانت الساعة هي العاشرة صباحاً، واليوم أحد، وهو في مكتب التحرير، كان قد نهض باكراً وبدأ بترجمة الفصل الأول من *يوميات خوري في الريف*، حيث عمل بإيقاع جيد. في تلك اللحظة، رن الهاتف. كان من عادته أن يفصله عن مأخذه. منذ أن تم وَصْلُ هاتفه بالبوابة، كَرِهَ أن تقوم هذه بتمرير المكالمات له. أما ذلك الصباح فقد نسي أن يفصله. قال صوت سيليست: ألو، دوتُور بيريرا، هناك مكالمة لك، يبحثون عنك من عيادة البحرية في باريدي. صحّح لها بيريرا، عيادة العلاج الطبيعي بحمامات البحر. قال صوت سيليست: نعم، في النهاية شيء من هذا القبيل، هل تريد المكالمة أم أقول لهم إنك غير موجود؟ قال

بيريرا: هاتها. سمع صوت تحويل الخط ثم صوتاً قال له: ألو، أنا الدكتور كاردوزو، أريد التحدث إلى الدوتّور بيريرا. أجاب بيريرا: أنا بيريرا، طاب يومك دكتور كاردوزو، يسرني أن أسمعك. قال الدكتور كاردوزو: كل السرور سروري، كيف حالك دوتّور بيريرا؟ هل مازلت تتبع الحمية التي وصفتها لك؟ قال بيريرا: أفعل مابوسعي، لكن الأمر ليس سهلاً. قال الدكتور كاردوزو: اسمع، دوتّور بيريرا، أتهيأ الآن للتوجه إلى لشبونة بالقطار، قرأت بالأمس قصة دوديه، إنها رائعة بالفعل، أود أن نتحدث عنها، ماقولك أن نلتقي لنتغدى معاً؟ سأله بيريرا: أتعرف مقهى أوركيديا؟ إنه في شارع ألكسندر هركولانو، بعد الملحمة اليهودية. قال الدكتور كاردوزو: نعم أعرفه، في أية ساعة دوتّور بيريرا؟ قال بيريرا: الساعة الثالثة عشرة، إذا كان ذلك يناسبك. أجاب الدكتور كاردوزو: ممتاز، الساعة الثالثة عشرة، إلى اللقاء. كان بيريرا واثقاً أن سيليست قد استمعت إلى الحديث بأكمله، إلا أن ذلك لم يكن يقلقه، فهو لم يقل شيئاً يمكن أن يخاف منه. ادّعى بيريرا أنه تابع ترجمة الفصل الأول من رواية برنانوس، وفَصَلَ الهاتفَ هذه المرة. عمل حتى الواحدة إلا ربعاً، ثم ارتدى سترته، وضع ربطة عنقه في جيبه وخرج.

حين وصل إلى مقهى أوركيديا، لم يكن الدكتور كاردوزو قد وصل بعد. طلب بيريرا من عمال المقهى تهيئة الطاولة القريبة من المروحة، وجلس هناك. طلب شراب ليمون كمقبِّل، لأنه كان يشعر بالعطش، إنما دون سكر. حين وصل النادل بكأس الليمون، سأله بيريرا: ماذا يوجد من أخبار يامانويل؟ أجاب النادل: أخبار متناقضة، يبدو أن نوعاً من التوازن يخيم الآن في أسبانيا، سيطر الوطنيون على الشمال، إلا أنَ الجمهوريين هم المنتصرون في الوسط. يبدو أن اللواء الأممي الخامس عشر قد تصرف ببسالة في سرقسطة، الوسط بين أيدي الجمهوريين، والإيطاليون الذين يؤيدون

فرانكو يتصرفون بحقارة. ابتسم بيريرا وسأل: وأنت، مع من يامانويل؟ أجاب مانويل: أحياناً مع هؤلاء، وأحياناً مع أولئك، لأن كلا الجانبين قويّان جداً، لكن قصة شباننا في كتيبة فيرياتو الذين ذهبوا لمحاربة الجمهوريين لاتعجبني، فنحن في الواقع أيضاً جمهورية، طَرَدْنا الملك عام ألف وتسعمائة وعشرة، ولاأرى لأي سبب يفترض أن نحارب جمهورية. وافقه بيريرا وقال: كلام صحيح.

في تلك اللحظة دخل الدكتور كاردوزو. كان بيريرا قد رآه دائماً بالمريول الأبيض، ولدى رؤيته بملابس عادية بهذا الشكل، بدا له أكثر شباباً كما ادّعى. كان الدكتور كاردوزو يرتدي قميصاً مخططاً وسترة فاتحة اللون، بدا له مضطرباً قليلاً. ابتسم له، فردَّ له بيريرا الابتسامة بمثلها. تصافحا وجلس الدكتور كاردوزو على أحد الكراسي. قال الدكتور كاردوزو: رائعة يادوتُور بيريرا، إنها فعلاً قصة جميلة، لم أكن أعرف أن دوديه لديه هذه القوة. أتيت لكي أهنئك، ولكن خسارة أنك لم توقع باسمك على الترجمة، وددتُ لو رأيتُ اسمك بين قوسين أسفل القصة. شرح له بيريرا بصبر أنه فعل ذلك بدافع التواضع، أو بالأحرى، بدافع الكبرياء، لأنه لم يكن يريد أن يفهم القراء أن هذه الصفحة بأكملها من إعداده، وهو المدير المسؤول عنها. كان يريد أن يعطي الانطباع بأن هناك آخرين يعملون للصحيفة، وأنها صحيفة كما ينبغي أن تكون الصحف. باختصار: لقد فعل ذلك من أجل الـ*لِشبُوَا*.

طلبا طبقَيْن من سلطة الأسماك. كان بيريرا يفضل لو يطلب عجة بالأعشاب، لكنه لم يجرؤ أن يفعل أمام الدكتور كاردوزو. همس الدكتور كاردوزو قائلاً: ربما كانت أناك المهيمنة الجديدة قد كسبت بضع نقاط. سأل بيريرا: بأي معنى؟ قال الدكتور كاردوزو: بمعنى أنك استطعت أن تكتب عبارة تعيش فرنسا، حتى لو كان ذلك من خلال شخص الكاتب. وافق بيريرا: كان الأمر مُرضياً جداً، ثم تابع

متظاهراً بالاطلاع على الأحداث، وقال: تعلم أن اللواء الأممي الخامس عشر، قد انتصر في وسط أسبانيا. يبدو أنه سلك مسلكاً بطولياً في سرقسطة. رد الدكتور كاردوزو قائلاً: لاتتوهم كثيراً يادوتّور بيريرا، لقد أرسل موسوليني كمية من الغواصات إلى فرانكو، والألمان يدعمونه بطيرانهم، لن يستطيع الجمهوريون الخروج سالمين. اعترض بيريرا قائلاً: لكن السوفييت إلى جانبهم، والألوية الأممية، وجميع الشعوب التي هرعت إلى أسبانيا لدعمهم. كرر الدكتور كاردوزو: أنا ماكنت لأستسلم لأوهام كثيرة. كنت أريد أن أقول لك بأنني تفاهمت مع مشفى سان مالو، وأنني مسافر خلال خمسة عشر يوما. تمنى بيريرا أن يقول: لا تتخلَّ عني، يادكتور كاردوزو، أرجوك لا تتخل عني. وعلى العكس من ذلك قال: لا تتخلَّ عنَّا، يادكتور كاردوزو، لا تتخل عن الناس الذين هنا، بلدنا بحاجة لأشخاص من نوعك. أجاب الدكتور كاردوزو: الحقيقة أنه ليس بحاجة لهم، أو على الأقل، أنا لست بحاجة له، أظن أن من الأفضل أن أذهب إلى فرنسا قبل الكارثة. الكارثة؟ سأل بيريرا، أية كارثة؟ أجاب الدكتور كاردوزو: لا أعرف، أتوقع حدوث كارثة، كارثة عامة، ومع ذلك لا أريد أن أغرقك في الغم، ربما تكون يا دوتّور بيريرا، بصدد الإعداد لأناك المهيمنة الجديدة، وتحتاج للهدوء. من ناحيتي، أنا ذاهب، لكني أريد أن أسألك، كيف حال شبانك؟ الشبان الذين التقيتَ بهم والذين يتعاونون معك في الصحيفة. لايوجد سوى واحد فقط يتعاون معي، أجاب بيريرا، إلا أنه لم يكتب لي حتى الآن مقالاً واحداً صالحاً للنشر، تصور، لقد أرسل لي بالأمس مقالاً عن ماياكوفسكي، محتفلاً بالثوري البلشفي في شخصه. لا أدري لأي سبب مازلت أعطيه النقود لقاء مقالات لا تصلح للنشر، ربما لأن لديه متاعب، وهذا أمر أنا متأكد منه، وصديقته أيضاً لديها متاعب، وأنا أشكّلُ العونَ الوحيد لهما. قال الدكتور كاردوزو: فهمت، أنت تعينهما، ولكن أقل مما ترغب بالقيام به فعلياً، ربما، لو تمكنتْ أناك المهيمنة الجديدة من الظهور، لكنت فعلت المزيد، يادوتّور بيريرا،

وعذراً لصراحتي معك. قال بيريرا: اسمع إذن يادكتور كاردوزو، لقد وظفت هذا الشاب لكي يكتب لي مقالات تأبين مسبقة، ومقالات لزاوية «حدث ذات يوم»، فلم يرسل لي إلا المقالات الانفعالية والثورية، كما لو أنه لا يعرف في أي بلد نعيش، ولقد أعطيته نقوداً من جيبي الخاص باستمرار، كيلا أثقل على الجريدة، ولأنه كان يفضّل عدمُ توريط المدير. حمَيْتُهُ وخبَّأتُ ابنَ عمه، الذي يبدو لي إبليساً مسكيناً والذي يقاتل في الألوية الأممية بأسبانيا، ومأأزال في الوقت الحاضر أرسل له النقود، وهو يتجول في ألنتيخو، ماذا بوسعي أن أفعل أكثر؟ أجاب الدكتور كاردوزو ببساطة: تستطيع أن تذهب إليه. قال بيريرا عجِباً: أذهب إليه، ألحق به في ألنتيخو، على طول تنقلاته السرية، ثم، أذهب إليه ، أين، أنا لاأعرف حتى أين يقيم؟ قال الدكتور كاردوزو: صديقته تعرف ذلك حتماً، أنا متأكد أن صديقته تعرف لكنها لا تقول لك، لأنها لا تثق بك تماماً يادوتّور بيريرا، ولكنك ربما تستطيع أن تفوز بثقتها، وأن تبدو لها أقل حذراً، إن لديك أنا أعلى قوية جداً، يادوتّور بيريرا، وهذه الأنا الأعلى تتصارع الآن مع الأنا المهيمنة الجديدة، أنت في حالة صراع مع نفسك، في هذه المعركة التي تهز كيانك، ويجدر بك أن تتخلى عن أناك الأعلى، وتدعها تمضي لمصيرها كحطام. سأل بيريرا: وماذا سيتبقى مني؟ أنا ما أنا، بذكرياتي، وحياتي الماضية، بذكرى أيام كوامبرا وزوجتي، حياتي التي كرستها للاهتمام بالمنوعات في صحيفة كبيرة، ماذا سيبقى مني؟ قال الدكتور كاردوزو: سيبقى الحِداد، اعذرني إنه تعبير فرويدي، أنا توفيقي في نظرتي إلى الأمور، ولملمتُ أفكاري من هنا وهناك. إنك بحاجة لإقامة حِداد، بحاجة لتقول وداعاً لحياتك الماضية، ولأن تعيش في الحاضر. لايستطيع رجل أن يعيش مثلك، يادوتّور بيريرا، وهو لايفكر إلا بالماضي. سأل بيريرا: وذاكرتي، وما عشتُه؟ أجاب الدكتور كاردوزو: إن كان الأمر مجرد ذاكرة، فلا يُفترَض أن تطغى على حاضرك بهذا الاستبداد، أنت تعيش في الماضي، كما لو أنك ماتزال

في كوامبرا، ثلاثين سنة إلى الوراء، وأن زوجتك ماتزال حية. إذا استمريت هكذا، فسوف تصبح كأحد المتيَّمين من عَبَدَةِ الذكريات، وربما تبدأ بالكلام مع صورة زوجتك. مسح بيريرا فمه، خفض صوته وقال: أنا أفعل ذلك بالفعل، دكتور كاردوزو. ابتسم الدكتور كاردوزو وقال: شاهدتُ صورةَ زوجتك في غرفتك بالعيادة، وفكرت: إن هذا الرجل يتكلم بعقله إلى صورة زوجته، ولم يقم بعد بِفِعلِ الحداد، هذا بالضبط مافكرت به، يادوتُور بيريرا. أضاف بيريرا: في الحقيقة أنا لاأتكلم معها عقلياً، بل أكلمها بصوت مسموع، أحكي لها كل شيء عن حياتي، وكان يبدو لي أن الصورة تجيبني. قال الدكتور كاردوزو: إنها خيالات تمليها الأنا الأعلى. عليك أن تحِدِّث أحداً ما عن هذه الأمور. اعترف بيريرا: ولكن ليس لدي أحد أكلمه، أنا وحيد. لدي صديق يعمل أستاذاً في جامعة كوامبرا، ذهبت إليه في منطقة حمامات بوشاكو وعدت في اليوم التالي، لأنني لم أستطع تحمله، جميع أساتذة الجامعة يؤيدون الوضع السياسي الحالي، وهو لا يشكل استثناء. ثم هناك مديري في العمل، لكنه يشارك في جميع المناسبات الرسمية بيدٍ ممدودة مثل الرمح، هل تتخيل أن بوسعي الكلام معه، ثم هناك السيدة التي تعمل بوابة في بناء مكتب التحرير، تلك الـ سيليست، إنها مرشدة للبوليس، وتعمل الآن سنترالاً لمكالماتي الهاتفية، ثم ربما يكون هناك مونتيرو روسي، لكنه هارب بشكل مستمر. سأل الدكتور كاردوزو: هل هو ذلك الـ مونتيرو روسي الذي التقيت به؟ أجاب بيريرا: إنه المتدرب الذي وظفته، الشاب الذي يكتب لي مقالات لا أستطيع نشرها. رد الدكتور كاردوزو: ابحث عنه إذن، كما قلت لك في السابق، ابحث عنه يادوتُور بيريرا، إنه شاب، ويجسِّد المستقبل، وأنت بحاجة لمعاشرة شاب، حتى لو كان يكتب مقالات لا يمكن نشرها في صحيفتكم، كُفَّ عن العيش في الماضي، عاشِر المستقبل. قال بيريرا: يالها من عبارة جميلة، عاشر المستقبل، يالها من عبارة جميلة، ما كانت لتخطر ببالي أبداً. طلب بيريرا كأس شراب ليمون بلا

سكر وتابع: ولدي أنت أيضاً يادكتور كاردوزو. يروق لي أن أتكلم معك الآن، وسأفعل في المستقبل أيضاً، لكنك تتخلى عنا، تتخلى عني، تتركني في هذه الوحدة، وهكذا، لا يبقى لي أحد سوى صورة زوجتي، كما بمقدورك أن تفهم. شرب الدكتور كاردوزو القهوة التي أحضرها له مانويل، وقال: نستطيع التحدث معاً في سان مالو إذا زرتني يادوتّور بيريرا. ليس شرطاً أن تبقى في هذا البلد، إنه من ناحية أخرى حافل بالذكريات إلى حد كبير، حاول أن تلقي بأناك الأعلى في المجاري، وأفسِح مكاناً لأناك المهيمنة الجديدة، ربما نستطيع أن نلتقي في ظروف مغايرة، وتكون إنساناً مختلفاً.

ألح الدكتور كاردوزو أن يدفع تكلفة الغداء، ورحّب بيريرا بذلك، كما ادّعى، لأنه بعد أن أعطى الورقتين النقديتين مساء الأمس لمارتا، أصبحت حافظة نقوده بالأحرى فارغة. نهض الدكتور كاردوزو وحياه قائلاً: إلى لقاء قريب، دوتّور بيريرا، آمل أن أراك ثانية في فرنسا أو في بلد آخر من العالم الواسع، وصدقني، دع أناك المهيمنة الجديدة تأخذ مكانها، دعها تظهر إلى الوجود، إنها بحاجة لأن تولد، بحاجة لإثبات نفسها.

نهض بيريرا وصافحه. نظر إليه وهو يبتعد وشعر بحنين كبير، كما لو أن هذا الوداع كان إلى الأبد. فكر بالأسبوع الذي أمضاه في مشفى العلاج بحمامات البحر في باريدي، بأحاديثه مع الدكتور كاردوزو، وفكر بوحدته. عندما خرج الدكتور كاردوزو من الباب واختفى في الشارع، شعر بيريرا أنه وحيد، وحيد فعلاً، وفكر: عندما يكون الإنسان وحيداً فعلاً، يكون الأوان قد آن لكي ينظر إلى نفسه قياساً إلى أناه المهيمنة التي تريد أن تفرض نفسها في اتحاد الأرواح. لكنه، حتى بتفكيره هذا لم يشعر بالاطمئنان، بل عانى على العكس من حنين شديد، لا يعرف لأي شيء، إلا أنه كان حنيناً شديداً لحياة ماضية وحياة قادمة، كما ادّعى.

21

صباح اليوم التالي، ادّعى بيريرا أن الهاتف أيقظه. كان مايزال يعيش حلمَه الذي بدا له كأنما استمر طوال الليل. حلم طويل جداً وسعيد بحيث لا يرى من المناسب الإفصاح عنه، باعتبار ألّا شأن له بهذه القصة.

عرف بيريرا في الحال صوت فيليبا، سكرتيرة المدير. قالت فيليبا بعذوبة: طاب يومك دوتّور بيريرا، معك المدير. أكمل بيريرا استيقاظه واتخذ وضعية الجلوس على طرف السرير. قال المدير: صباح الخير دوتّور بيريرا، مديرك يتكلم. أجاب بيريرا: صباح الخير سيدي المدير، هل أمضيت عطلة جيدة؟ قال المدير: جيدة جداً، جيدة جداً، حمامات بوشاكو مكان رائع بالفعل، وأعتقد بأنني قلت لك ذلك في السابق، وإن لم أنسَ، فقد تحادثنا بالهاتف. قال بيريرا: آه، نعم بالتأكيد، لقد تحادثنا عبر الهاتف حين نشرتُ قصة بلزاك، اعذرني، لكني استيقظت الآن وأفكاري ليست واضحة. قال المدير ببعض الخشونة: يحدث لي في بعض الأحيان ألاّ تكون أفكاري واضحة، وأظن أن هذا قد يحدث لك أنت أيضاً يادوتّور بيريرا. أجاب بيريرا: صحيح، يحدث لي هذا خاصةً في الصباح، بسبب هبوط الضغط الذي أعاني منه. قال المدير ناصحاً: خذ قليلاً من الملح لكي يستقر. قليل من الملح تحت اللسان ويستقر الضغط. لكني

لم أتصل بك من أجل الحديث عن ضغطك يادوتّور بيريرا، الواقع أننا لم نعد نراك كثيراً في المقر المركزي للجريدة، تلك هي المشكلة، تسجن نفسك في تلك الغرفة الصغيرة بشارع رودريغو دا فونسيكا ولا تأتي لتكلمني مطلقاً، لا تطرح علي مشاريعك، تعمل كل شيء حسب مشيئتك. قال بيريرا: اعذرني، سيدي المدير، ولكنك، للحق، قد أعطيتني حرية التصرف الكاملة، قلت لي إن الصفحة الثقافية هي مسؤوليتي، أي باختصار، قلت لي بأن أتصرف حسب مشيئتي. تابع المدير: حسب مشيئتك، موافق، ولكن ألا يبدو لك أن عليك أن تكلمني من وقت لآخر؟ قال بيريرا: هذا سيكون مفيداً لي أيضاً، فأنا في الحقيقة وحيد، وحيد إلى درجة لاتساعد على الاهتمام بالثقافة، وأنت قلت لي إنك لا تريد الاهتمام بالثقافة. سأل المدير: وماذا عن المتدرب، ألم تقل لي إنك وظفت شاباً متدرباً؟ أجاب بيريرا: نعم، لكن مقالاته حالياً ليست ناضجة. ومن ناحية أخرى، لم تحدث أية وفاة بين الشخصيات الأدبية ذات القيمة، ثم إن هذا المتدرب في مقتبل العمر، وقد طلب مني إجازة، لا بد أنه ذهب إلى البحر، وها قد مضى عليه شهر دون أن يظهر. قال المدير: اصرفه إذن يادوتّور بيريرا، ما الذي تفعله بشخص لا يحسن الكتابة، ويَمضي في إجازة؟ رد بيريرا: لندعْ له فرصة أخرى، فلابد أنه، يتعلم المهنة، وهو ليس سوى شاب تنقصه الخبرة، وعليه أن يعتاد قليلاً. في تلك اللحظة، تدخل صوت فيليبيا العذب في المكالمة قائلاً: عذراً سيدي المدير، هاتف لك من قبل الحكومة المدنية، ويبدو لي الأمر عاجلاً. حسناً، دوتّور بيريرا، سأعاود الاتصال بك خلال حوالى عشرين دقيقة، حتى ذلك الوقت، استيقظ جيداً، وضع قليلاً من الملح ليذوب تحت لسانك. قال بيريرا: أنا أتصل بك إذا أحببت. قال المدير: لا، أحتاج لوقتي كله، سأعاود الاتصال بك عندما أنتهي، إلى اللقاء.

نهض بيريرا وذهب ليأخذ حماماً سريعاً. أعد قهوة وأكل قطعة بسكويت مملّح. ثم ارتدى ثيابه وذهب إلى مدخل شقته. قال لصورة

زوجته: المدير هو الذي اتصل بي، يبدو لي أنه يلف ويدور حول الموضوع، ولم ينتقل إلى الهجوم بعد، لا أفهم ماذا يريد مني، لكنه سينتقل إلى الهجوم حتماً، ما قولك؟ ابتسمت له صورة زوجته بتلك الابتسامة البعيدة، واستخلص بيريرا: حسناً، الصبر، لنر مايريده المدير، ليس هناك ما يلومني عليه. على أية حال، فيما يتعلق بالجريدة، أنا لا أفعل شيئاً آخر سوى ترجمة قصص فرنسية من القرن التاسع عشر.

جلس إلى طاولة الصالون وفكر أن يكتب مقالاً لزاوية «حدث ذات يوم» حول ريلكه. غير أنه في أعماقه، لم تكن لديه أية رغبة بكتابة أي شيء عن ريلكه. فليذهب إلى الشيطان ذلك الرجل شديد الأناقة والتفاخر بما ليس لديه، والذي خالط المجتمع الراقي، فكّر بيريرا. ثم راح يترجم بعض الجُمل من رواية برنانوس. كان الأمر أكثر تعقيداً مما ظنه، في البداية على الأقل، هذا وهو مايزال في الفصل الأول، ولم يدخل بعد في لُبِّ القصة. في تلك اللحظة، رن الهاتف. قال صوت الآنسة فيليبا العذب: طاب يومك مرة أخرى، دوتّور بيريرا، السيد المدير معك. انتظر بيريرا بضع ثوان، ثم أتاه صوت المدير رصيناً وهادئاً، وقال: حسناً يادوتّور بيريرا، ماذا كنا نقول؟ قال بيريرا: كنت تقول لي بأنني أسجن نفسي في مكتب التحرير بشارع رودريغو دا فونسيكا، سيدي المدير، ولكن هذه الغرفة هي مكان عملي، المكان الذي أنجز فيه الصفحة الثقافية، ولاأدري ماذا بوسعي أن أصنع في الجريدة، فأنا لا أعرف المحررين، لقد انشغلت وقتاً طويلاً جداً بالمنوعات في صحيفة أخرى، غير أنك لم تشأ أن تكلفني بالمنوعات، وأردت أن تجعلني مسؤولاً عن الثقافة، كما أنه ليس لي احتكاك بالمحررين السياسيين، ولا أعلم ماذا يمكن أن أفعل في مقر الجريدة المركزي. سأل المدير: هل قلت مافي قلبك وارتحت يادوتّور بيريرا؟ قال بيريرا: اعذرني، سيدي المدير، لم أكن أريد أن أريح قلبي، فقط

أردت أن أعرض عليك أسبابي. حسناً، قال المدير، الآن أود فقط أن أطرح عليك سؤالاً، لماذا لا تراودك قط الحاجة لأن تأتي وتتكلم مع مديرك؟ أجاب بيريرا: لأنك قلت لي بأن الثقافة ليست من شأنك سيدي المدير. قال المدير: اسمع، دوتّور بيريرا، لا أدري إن كان سمعك ثقيلاً، أو أنك لا تريد فعلاً أن تفهم، أنا أستدعيك، أتفهم؟ وسيكون عليك أن تطلب مني محادثة من وقت لآخر، ولكن نظراً لما وصلنا إليه، ونظراً لأن لديك شيئاً من عسر الفهم، فأنا من يطلبك للكلام. قال بيريرا: أنا بكامل تصرفك. ختم المدير كلامه قائلاً: حسناً، تأتي إلى مبنى الجريدة الساعة السابعة عشرة، والآن، طاب يومك، وإلى اللقاء دوتّور بيريرا.

انتبه بيريرا إلى تعرّقه قليلاً. غيرّ قميصه، الذي تبلل تحت إبطيه، وفكر بالذهاب إلى مكتب التحرير وينتظر هناك حلول الساعة الخامسة بعد الظهر. ثم قال لنفسه إنه لن يجد ما يفعله في المكتب، سيرى بالضرورة سيليست، وسيضطر بالتالي إلى فصل الهاتف. لذا رأى من الأفضل له البقاء في بيته. عاد إلى طاولة غرفة الطعام وراح يترجم برنانوس. كانت بالفعل رواية معقدة وذات إيقاع بطيء، ومن يدري ماالذي سيفكر به قراء الـ*لِشبُوَا* عند قراءة الفصل الأول. رغم كل شيء، مضى في عمله وترجم صفحتين. في وقت الغداء، أراد أن يعد شيئاً ما، إلا أن حافظة طعامه كانت فارغة. ادّعى بيريرا أنه خطر له تناول شيء ما في مقهى أوركيديا، حتى وإن كان بشكل متأخر، ثم الذهاب إلى الجريدة. ارتدى ملابس فاتحة اللون وربطة عنقه السوداء، وخرج. ركب الترام حتى تيريرو دو باشو، وهناك، غيَّر وجهَتَه إلى شارع ألكسندر هيركولانو. حين دخل مقهى أوركيديا، كانت الساعة تقارب الثالثة، وكان النادل يُخلي الطاولات. قال مانويل بودّ: تعال، يادوتّور بيريرا، من أجلك يوجد شيء للأكل دائماً، أظن أنك لم تتناول غداءك بعد، إن حياة الصحفي قاسية. أجاب بيريرا: نعم، خاصة بالنسبة للصحفيين الذين لايعلمون

شيئاً عما يجري، من أمثالنا نحن في هذا البلد الذي لا نسمع فيه عن شيء، ما الأخبار اليوم؟ أجاب مانويل: يبدو أن سفناً انكليزية قُصفت اليوم في عرض البحر مقابل برشلونة، وأن زورقاً كان يقل مسافرين فرنسيين، قد لوحق حتى الدردنيل، لاحَقَتْهُ غواصات إيطالية، الإيطاليون أقوياء جداً بالغواصات، إنه اختصاصهم. طلب بيريرا كأس شراب ليمون دون سكر وطبق عجة بالأعشاب. جلس قرب المروحة، لكن المروحة كانت متوقفة ذلك اليوم. قال مانويل: أطفأناها. فقد انتهى الصيف من الآن وصاعداً، هل سمعت العاصفة هذه الليلة؟ أجاب بيريرا: لا، لم أسمعها، لقد نمت نوماً متواصلاً، ولكن الطقس مازال حاراً بالنسبة لي. أدار له مانويل المروحة وأحضر له كأس شراب ليمون. ومارأيك بشيء من النبيذ، دوتّور بيريرا، متى سترضيني وتجعلني أقدم لك شيئاً من النبيذ؟ أجاب بيريرا: النبيذ مؤذٍ لقلبي، هل لديك صحيفة هذا الصباح؟ أحضر له مانويل صحيفة. كان العنوان الكبير يقول: *تماثيل من الرمل على شاطئ كاركافيلوس. وزير الأمانة القومية للدعاية يدشن معرض الفنانين الصغار*. وكانت هناك صورة كبيرة تحتل منتصف الصفحة، تبين أعمال فناني الشاطئ الصغار: تماثيل حوريات، وزوارق، وسفن، وحيتان. قلب بيريرا الصفحة. كان يمكن قراءة الخبر التالي في الصفحات الداخلية: *مقاومة باسلة تبديها الكتيبة البرتغالية في أسبانيا*. وكتب في الأعلى: «جنودنا يتميزون في معركة أخرى، تساعدهم من بعيد، الغواصات الإيطالية.» لم يرغب بيريرا أن يقرأ المقال، ووضع الجريدة على إحدى الكراسي. أنهى أكل العجة، ثم طلب كأس شراب ليمون آخر دون سكر. سدد حسابه ونهض، لبس السترة التي خلعها ثم توجه سيراً نحو المقر المركزي لجريدة *لِشبُوا*. وصل إلى هناك عند الساعة الخامسة إلا ربعاً. ادّعى أنه دخل أحد المقاهي، وطلب كأس عرق. كان يعلم أن ذلك مضرٌ لقلبه، لكنه قال لنفسه: لايهمّ. صعد سلالم المبنى القديم الذي كانت جريدة

الـ *لِشبَوّا* تتخذ قسماً منه مقراً لها، حيّا الآنسة فيليبا التي قالت: سأعلن عن وصولك. أجاب بيريرا: ليس هناك من داعٍ، سأعلن عن نفسي بنفسي، إنها الخامسة تماماً، وقد أعطاني السيد المدير موعداً في الخامسة. قرَع الباب وسمع صوت المدير يقول: تفضل. قفل بيريرا أزرار سترته ودخل. كان لون المدير قد أصبح برونزياً شديداً، واضحٌ جداً أنه تشمس في حدائق الحمامات. قال بيريرا: ها أنذا ياسيدي المدير، تحت تصرفك، قل لي كل شيء. قال المدير: عبارة كل شيء، أقل من أن تعبر عن الأمور، يا بيريرا، هاقد مضى أكثر من شهر دون أن نرى بعضنا. قال بيريرا: رأينا بعضنا في الحمامات، وكان يبدو عليك الرضى. قطع المدير عليه الكلام وأوجز: العطلة هي العطلة، دعنا لانتحدث عن العطَل. جلس بيريرا على الكرسي أمام المكتب. تناول المدير قلم رصاص وراح يدوّره فوق المكتب. قال: دوتُور بيريرا، أحب أن أرفع الكلفة معك حين أخاطبك، إذا سمحت. أجاب بيريرا: على راحتك. اسمع يا بيريرا: نحن نعرف بعضنا البعض منذ وقت قليل، منذ تأسيس هذه الصحيفة، لكني أعرف أنك صحفي جيد، عملتَ حوالى ثلاثين عاماً في المنوعات وتعرف أمور الحياة، وأنا متأكد أنك تستطيع أن تفهمني. قال بيريرا: سأبذل جهدي. قال المدير: حسناً، أنا لم أكن أتوقع هذه الضربة الأخيرة. سأل بيريرا: أية ضربة؟ قال المدير: ذلك الإطراء لِ فرنسا قد أثار استياءً كبيراً في الأوساط الهامة. سأل بيريرا بهيئة مندهشة: أي إطراء لِ فرنسا؟ صاح المدير عجِباً: بيريرا! أنت نشرت قصة لِ ألفونس دوديه تتحدث عن الحرب مع الألمان، وتنتهي بعبارة: تعيش فرنسا. أجاب بيريرا: إنها قصة من القرن التاسع عشر. تابع المدير: نعم هي قصة من القرن التاسع عشر، لكنها تتكلم عن حرب ضد ألمانيا، وأنت غير قادر يا بيريرا أن تعرف بأن ألمانيا هي حليفتنا. اعترض بيريرا قائلاً: لم تدخل حكومتنا في تحالفات، ليس رسمياً على أية حال. قال المدير: توقف يا بيريرا،

حاول أن تفكر بشكل عقلاني، إذا لم يكن هناك تحالف فهناك على الأقل تعاطف، تعاطف قوي، نحن نفكر مثل الألمان، في السياسة الداخلية والخارجية، ونساعد الوطنيين الأسبان مثلما تفعل ألمانيا. دافع بيريرا عن نفسه بقوله: لكنهم لم يعترضوا في الرقابة، بل تركوا القصة تمر بسلام. قال المدير: في الرقابة يعمل أشخاص جاهلون، أميون، مدير الرقابة رجل ذكي، إنه صديقي لكنه لايستطيع أن يقرأ بنفسه، بروفات جميع الصحف البرتغالية، والآخرون عبارة عن موظفين، رجال شرطة يتقاضون أجراً لقاء عدم السماح بمرور كلمات مخربة مثل اشتراكية وشيوعية، ولم يكن بمقدورهم فَهْمُ قصة لِ دوديه تنتهي بعبارة تعيش فرنسا، نحن الذين يجب أن نكون يقظين، الذين يجب أن نكون حذرين، نحن الصحفيين، من نملك الخبرة التاريخية والثقافية، علينا أن نراقب أنفسنا بأنفسنا. ادّعى بيريرا أنه قال: أنا هو الشخص المراقَب. نعم، في الحقيقة هناك من يراقبني. قال المدير: أوضِح كلامك يابيريرا، ماذا تقصد بذلك؟ أريد أن أقول إنه أُحدِثَ مقسمٌ للهاتف في مكتب التحرير، ولم أعد أتلقى المكالمات بشكل مباشر، بل تمر كلها عبر سيليست، بوابة البناء. رد المدير: هذا مافعلوه في جميع مكاتب التحرير، فإذا كنتَ غائباً، يقوم أحد بدلاً منك بتلقي المكالمات والرد عليها. قال بيريرا: نعم، ولكن البوابة مُخبرة للبوليس، أنا متأكد من ذلك. قال المدير: قف بيريرا، البوليس يحمينا، يسهر على راحتنا، عليك أن تكون ممتناً له. أجاب بيريرا: أنا لست ممتناً لأحد، سيدي المدير، لست ممتناً إلا للحِرَفية التي أملكها، ولذكرى زوجتي. قال المدير موافقاً: يجب أن يكون الإنسان دوماً ممتناً للذكريات الجيدة، أما أنت، يابيريرا، حين تحرّر الصفحة الثقافية، فإن عليك أن تريني إياها أولاً، هذا ما أطالب به. قال بيريرا مصراً: لكني قلت لك إن الأمر يتعلق بقصة فيها روح وطنية، ولقد شجعتني مؤكداً لي أننا، في الوقت الحاضر، بحاجة إلى روح وطنية. أشعل المدير سيجارة وحكّ رأسه، ثم قال: روح

وطنية برتغالية، لا أعلم إن كنت تفهمني يابيريرا، نحتاج إلى روح وطنية برتغالية، وأنت لا تفعل شيئاً آخر سوى نشر القصص الفرنسية، والفرنسيون لا يتعاطفون معنا، لاأدري إن كنت تفهمني، على كل حال، اسمع، يحتاج قراؤنا لصفحة ثقافية برتغالية، وأمامك أن تختار بين مجموعة من حوالى عشرة كتّاب من البرتغال، بمن فيهم كتّاب القرن التاسع عشر. وفي المرة القادمة، تأخذ قصة لـ إيشًا دا كيروز، الذي كان يعرف البرتغال بشكل جيد جداً، أو قصة لِ كاميلو كاستيلو برانكو، الذي تغنى بالهوى والذي عاش حياة كثيرة الأحداث والحركة، من الهوى والسجن. ليست الـ*لِشْبُوَا* صحيفة تُعجَب بالأجانب، وأنت بحاجة للعودة إلى جذورك، للعودة إلى أرضك، مثلما قال الناقد برّابوتاس. أجاب بيريرا: لاأعرف من يكون. شرح له المدير: إنه ناقد وطني، يكتب في صحيفة منافسة لنا، ويزعم أن على الكتاب البرتغاليين العودة إلى أرضهم. قال بيريرا: أنا، لم أهجر أرضي أبداً، أنا مزروع في الأرض مثل أرومة. أقرّ المدير وقال: موافق، ولكن عليك أن تستشيرني كلما أردت القيام بمبادرة، لا أعلم إن كنت قد فهمتني. قال بيريرا: فهمت تماماً، ثم فك الزر الأول من سترته. ختم المدير كلامه بقوله: حسناً، أظن أن محادثتنا انتهت، بودي أن أقيم علاقة طيبة بيننا. قال بيريرا: بالتأكيد، واستأذن بالانصراف.

حين خرج، كان يهب هواء قوي يحني قمم الأشجار. مضى بيريرا سيراً على قدميه، ثم توقف ليرى إن كانت هناك سيارة أجرة تمر. فكر لحظة، بالذهاب إلى مقهى أوركيديا لتناول العشاء طالما أن عليه القيام بذلك، ثم غير رأيه ووصل إلى نتيجة بأنه كان يستحسن العودة إلى بيته وتناول قهوة بالحليب. ولكن لسوء الحظ، لم تمر أية سيارة أجرة، واضطر، كما ادّعى، أن ينتظر حوالى نصف ساعة كاملة.

22

في اليوم التالي، بقي بيريرا في بيته، كما ادّعى. نهض متأخراً، تناول فطوره وأبعد كتاب برنانوس جانباً، فهو على أية حال لن يُنشر في الـ *لِشبُوا*. بحث في مكتبته وعثر على الأعمال الكاملة لِ كاميلو كاستيلو برانكو. انتقى دون قصد، إحدى القصص وبدأ بقراءة الصفحة الأولى. وجدها مضنية، لم تكن تتوافر في هذه الكتابة، رشاقةُ الفرنسيين وسخريتُهم، كانت عبارة عن قصة حنين مظلمة، مليئة بالمشاكل ومثقلة بالتراجيديا. تعب بيريرا سريعاً. تمنّى أن يكلم صورة زوجته، لكنه أجّل الحديث إلى وقت آخر. لذا، صنع لنفسه عجة دون أعشاب مطيَّبة، أكلها بكاملها وذهب إلى سريره، نام في الحال وحلِم حلماً جميلاً. نهض ثم جلس فوق الأريكة وراح ينظر من النوافذ. كانت تُشاهَد من نوافذ شقته، شجرات نخيل الثكنة المقابلة، ومن وقت لآخر، يُسمع صوت بوق. لم يكن بيريرا يستطيع تمييز نفير البوق، لأنه لم يؤدِّ خدمته العسكرية، وبقيت هذه الرسائل غير مفهومة بالنسبة له. راح يحدق بأغصان شجرات النخيل التي كانت تهتز في الهواء وفكر بطفولته. أمضى قسماً لا بأس به من بعد الظهر بهذا الشكل، وهو يفكر بطفولته. لكن هذا شيء لا يريد بيريرا الحديث عنه، لأنه أمر لاشأن له بهذه القصة، كما ادّعى.

في حوالى الرابعة من بعد الظهر، سمع طرقاً على الباب، انتفض بيريرا من غفلته، لكنه لم يتحرك. وجد من الغرابة أن يطرق أحد بابه، فكر: ربما يكون الطارق بييداد التي عادت من سيتوبال. لابد أنهم أجروا عملية لأختها في وقت أبكر مما كان مقرراً. دوى الرنين ثانية، بإلحاح، مرتين، قرعتين طويلتين على الجرس. نهض بيريرا وأدار المقبض الذي يفتح باب البناء. بقي واقفاً في أعلى السلالم، سمع الباب الذي كان ينغلق ببطء، ووقعَ خطى تصعد بسرعة. حين وصل الشخص إلى قرص الدَرَج، لم يكن بمقدوره أن يتميزه بسبب الظلمة الشديدة المخيمة على السلالم، بحيث لم تعد الرؤية سهلة.

طاب يومك، قال صوت عرفه بيريرا، هذا أنا، هل أستطيع الدخول؟ كان ذلك مونتيرو روسي. أدخله بيريرا وأغلق وراءه الباب في الحال. توقف مونتيرو روسي في المدخل، كان يحمل محفظة صغيرة، ويلبس قميصاً قصير الأكمام. قال مونتيرو روسي: اعذرني دوتّور بيريرا، سأشرح لك كل شيء فيما بعد، ولكن هل يوجد أحد ما في المبنى؟ قال بيريرا: البوابة في سيتوبال، ومستأجرو الطابق الأعلى غادروا شقتهم وانتقلوا إلى بورتو. سأل مونتيرو روسي باضطراب: أتعتقد أن أحداً رآني؟ كان يتعرق ويتلعثم قليلاً. قال بيريرا: لا أظن، ولكن ماالذي تفعله هنا، ومن أين جئت؟ قال مونتيرو روسي: سأشرح لك كل شيء فيما بعد، دوتّور بيريرا، ولكني الآن بحاجة لأخذ حمام وتغيير القميص، أنا منهك. صحبه بيريرا إلى الحمام وأعطاه قميصاً نظيفاً كاكي اللون، وقال سيكون واسعاً قليلاً عليك، ولكن لايهم. بينما كان مونتيرو روسي يستحم، توجه بيريرا إلى مدخل الشقة أمام صورة زوجته. تمنى كما ادّعى، أن يقول لها أشياء كثيرة، منها مثلاً، أن مونتيرو روسي حل في المنزل، وأحداثاً أخرى أيضاً. لكنه بدلاً من ذلك، لم يقل شيئاً، وأرجأ الكلام معها لوقت آخر ثم عاد إلى الصالون. جاء مونتيرو روسي يسبح في قميص بيريرا شديد الاتساع. قال: شكراً دوتّور بيريرا، أنا

منهك، بودي أن أحكي لك أشياء كثيرة، لكني منهك حقاً، ربما يجب أن أنام قليلاً. قاده بيريرا إلى غرفة النوم، ومدّ غطاء قطنياً فوق شراشف السرير. قال له: تمدد هنا، واخلع حذاءك، لاتحتفظ به في قدميك حين تنام، وإلا فلن يرتاح الجسم، واطمئن، سوف أوقظك فيما بعد. استلقى مونتيرو روسي، أغلق بيريرا الباب وعاد إلى الصالون. أبعد قصص كاميلو كاستيلو، تناول برنانوس من جديد، وراح يترجم مابقي من الفصل. فكّر:لايهم إن لم يستطع أن ينشره في الـ*لِشبُوا*، ربما ينشره في كتاب، فيحصل البرتغاليون على الأقل، على كتاب جيد للقراءة، جادٌ وأخلاقي ويعالج مشاكل أساسية، كتاب مفيد لضمير القراء، هكذا فكر بيريرا.

في الساعة الثامنة، كان مونتيرو روسي ما يزال نائماً. توجه بيريرا إلى المطبخ، خفق أربع بيضات، وضع فيها ملعقة خردل صغيرة، وذرة مردقوش وزعتراً برّياً. كان يريد تحضير عجة جيدة بالأعشاب، فكر أن مونتيرو روسي جائع جوعاً شديداً بالتأكيد. أعد مائدة لاثنين في الصالون، فرش غطاء طاولة أبيض اللون، أخرج صحون كالداس دا رينها، التي أهداها له سيلفا بمناسبة زواجه، ووضع شمعتين فوق الشمعدان. ثم ذهب لإيقاظ مونتيرو روسي، لكنه دخل بهدوء إلى الغرفة، فهو في الواقع لم يكن يود أن يزعج نومه. كان الشاب منكباً فوق السرير ويغط في النوم، وأحد ذراعيه في الفراغ. ناداه بيريرا، لكن مونتيرو روسي لم يستيقظ. عندها هز له بيريرا ذراعه وقال له: مونتيرو روسي، إنه وقت العشاء، إن بقيت نائماً الآن فلن تستطيع النوم في الليل. من الأفضل أن تأتي وتأكل لقمة. هرع مونتيرو روسي خارج السرير بهيئة مذعورة. قال بيريرا: اهدأ، أنا دوتّور بيريرا، أنت في أمان هنا. ذهبا إلى الصالون، وأشعل بيريرا الشمعتين، بينما كانت العجة تُطهى. قدم لمونتيرو روسي علبة من اللحم المعلب بقيت في حافظة طعامه، وسأله من المطبخ: ماالذي حدث معك يامونتيرو روسي؟ أجاب

مونتيرو روسي: شكراً، شكراً على الاستضافة، دوتّور بيريرا، وشكراً أيضاً على النقود التي أرسلتها لي، مارتا أوصلتها لي. وضع بيريرا العجة على الطاولة وأحاط عنقه بفوطته. سأل: إذن، يامونتيرو روسي، ماالذي يحدث؟ انقضَّ مونتيرو روسي بعجلة على الطبق كما لو أنه لم يأكل منذ أسبوع. قال بيريرا: بهدوء، ستخنق نفسك، كُلْ بهدوء، يوجد بعد هذا جبن أيضاً، والآن احكِ لي. بلع مونتيرو روسي لقمة وقال: أوقِف ابن عمي. سأل بيريرا: أين، في النزل الذي وجدتُهُ له؟ أجاب مونتيرو روسي: لا، لقد أوقف في ألنتيخو أثناء بحثه عن متطوعين من الأهالي، واستطعت أنا الهرب بأعجوبة. سأل بيريرا: والآن؟ الآن أنا ملاحَق يادوتّور بيريرا، أعتقد أنهم يبحثون عني في كل أنحاء البرتغال، ركبت باصاً بالأمس، وصلت حتى باريرو، ثم ركبت عبّارة، وجئت سيراً على الأقدام من كيه دو سودريه حتى هنا، إذ لم يعد معي نقود للمواصلات. سأل بيريرا: هل يعرف أحد أنك هنا؟ أجاب مونتيرو روسي: لا أحد، ولاحتى مارتا، وبالمناسبة أريد الاتصال بها، أود على الأقل أن أقول لمارتا إني في أمان، فهي لن تتخلى عني أليس كذلك يادوتّور بيريرا؟ أجاب بيريرا: تستطيع البقاء هنا الوقت الذي تشاء، على الأقل حتى منتصف أيلول، وقت عودة بيبيداد، بوابة المبنى التي تعمل في الوقت نفسه مدبرةً لمنزلي. بيبيداد امرأة موثوقة، لكنها بوابة والبوابات يتكلمن مع غيرهن من البوابات، ولن يكون ممكناً ألا يلفت وجودُك النظر. قال مونتيرو روسي: آ، من الآن حتى الخامس عشر من أيلول، سأعثر على حل آخر، قد أكلم مارتا في الأمر. قال بيريرا: اسمع يا مونتيرو روسي، انْسَ مارتا الآن، طالما أنت في بيتي، لن تتصل بأحد، احتفظ بالأحرى بهدوئك وأرِحْ نفسك. سأل مونتيرو روسي: وأنت ماذا تفعل يا دوتّور بيريرا؟ هل مازلت تهتم بمقالات التأبين وزوايا «حدث ذات يوم»؟ أجاب بيريرا: جزئياً، لكن المقالات التي كتَبْتَها لي جميعها لاتنشر، وضعتُها في ملف بمكتب التحرير،

لاأعلم لماذا لم ألقِ بها في المهملات. همس مونتيرو روسي: لقد آن الأوان لأعترف لك بأمر، واعذرني إن تأخرت في قوله، لكن هذه المقالات ليست جميعها من بنات أفكاري. سأل بيريرا: ما معنى هذا؟ حسناً دوتّور بيريرا، الحقيقة أن مارتا قدمت لي مساعدة كبيرة، هي التي أنجزتها جزئياً، الأفكار الأساسية هي أفكارها. رد بيريرا: يبدو لي هذا السلوك معيباً إلى حد كبير. أجاب مونتيرو روسي: آه، لا أعلم إلى أي حد هو كذلك، دوتّور بيريرا، أتعرف ما الهتاف الذي يصيح به الوطنيون؟ إنهم يصيحون، يعيش الموت، وأنا لا أعرف كيف أكتب عن الموت. أنا أحب الحياة، يا دوتّور بيريرا، وما كنت أبداً لأستطيع، بمفردي، كتابة مقالات تأبينية، أوالتحدث عن الموت، حقاً، ما كنت لأقدر أن أتحدث عنه. ادّعى بيريرا أنه قال: في الواقع، أفهمك، أنا أيضاً لم أعد قادراً على ذلك.

هبط الليل، وكانت الشمعتان ترسلان ضوءاً رقيقاً. قال بيريرا: لا أعلم لماذا أفعل لك هذا كله، يامونتيرو روسي. أجاب مونتيرو روسي: ربما لأنك شخص جيد. رد بيريرا: هذا تفسير بسيط للغاية، العالم مليء بالناس الجيدين الذين لا يبحثون عن المتاعب. قال مونتيرو روسي: لا أعرف إذن، لا أعرف حقاً. قال بيريرا: المشكلة هي أني أنا نفسي لا أعرف، كنت حتى هذه الأيام الأخيرة، أطرح على نفسي أسئلة كثيرة، ولكن ربما يكون من الأفضل أن أكف عن طرحها على نفسي. أحضَرَ كرزاً مغموراً بالعرق، وملأ مونتيرو روسي لنفسه كأساً كاملة. لم يأخذ بيريرا سوى كرزة واحدة مع قليل من الشراب، لأنه كان يخشى أن يقطع حميته.

طلب منه بيريرا قائلاً: احكِ لي كيف حدث ذلك، ما الذي كنت تفعله في ألنتيخو حتى الآن؟ أجاب مونتيرو روسي: لقد جِلْنا المنطقة كلها، وكنا نتوقف في الأماكن الآمنة، الأماكن التي فيها أكبر قدر من الخميرة الثورية. قاطعه بيريرا وقال: اعذرني، ولكن

ابن عمك لايبدو لي ذلك الشخص المؤهل لهذا الدور، لم أره سوى مرة واحدة، لقد بدا لي ساذجاً بعض الشيء، بل فيه شيء من الغباء، حتى أنه لايتكلم البرتغالية. نعم، أجاب مونتيرو روسي، ولكنه في الحياة المدنية يعمل بالطباعة، يستطيع عمل أوراق، ولا يوجد من هو أفضل منه في تزوير جواز سفر. قال بيريرا: كان بوسعه إذن أن يُحسِن تزوير جواز سفره الخاص، فقد كان لديه جواز سفر أرجنتيني، وكان واضحاً من مسافة كيلو متر أنه مزوّر. اعترض مونتيرو روسي قائلاً: ذلك الجواز لم يكن من صنعه، لقد أعطوه إياه في أسبانيا. سأل بيريرا: والنتيجة؟ أجاب مونتيرو روسي: حسناً، عثرنا على مطبعة يمكن أن تكون موضع ثقة في بورتاليغري، وانخرط ابن عمي في العمل. أنجزنا عملاً ممتازاً. صنع ابن عمي عدداً كبيراً من جوازات السفر، وزعنا قسماً لا بأس به منها، واحتفظتُ بالباقي لأننا لم ننته في الوقت المناسب. تناول مونتيرو روسي المحفظة التي تركها على الأريكة، وأدخل يده فيها، ثم قال، هذا ما بقي لي. ووضع رزمة من جوازات السفر على الطاولة، المفروض أن هناك حوالى عشرين جواز سفر. أنت مجنون ياعزيزي مونتيرو روسي، تتجول حاملاً هذه الأشياء كما لو كنت تحمل سكاكر. إذا وجدوك وأنت تحمل هذه الوثائق فلن تنجو.

تناول بيريرا جوازات السفر وقال: أنا من سيخفيها. فكر في وضعها داخل أحد الأدراج، لكنه وجد أنه مكان غير آمن. لذا توجه إلى المدخل ووضعها مسطّحةً في المكتبة، خلف صورة زوجته بالضبط. قال للصورة: اعذريني، ولن يبحث أحد في هذا المكان أبداً، إنه أآمن مكان في البيت. ثم عاد إلى الصالون وقال: الوقت متأخر، ربما من الأفضل الذهاب للنوم. قال مونتيرو روسي: يجب أن أتصل بمارتا، من المحتمل أنها شديدة القلق، هي لا تعلم ماذا حدث، ربما ظنت أنهم أوقفوني أنا أيضاً. اسمع يامونتيرو روسي، غداً سأتصل أنا نفسي بمارتا، أجاب، ولكن من هاتف عمومي، ومن الأفضل أن

تبقى هادئاً هذا المساء، وتذهب للنوم، اكتب لي رقم الهاتف على قطعة الورق هذه. قال مونتيرو روسي: سأترك لك رقمين، إن لم تُجِبْ على الأول، فسوف تجيب حتماً على الثاني، وإن لم تجب بنفسها، فاسأل عن ليز ديلونيه، هذا هو اسمها في الوقت الحاضر. أعرف، أقرَّ بيريرا: التقيت بها مؤخراً، لقد أصبحت هذه الفتاة نحيلة كالمسمار، يكاد المرء لا يعرفها، لا تناسبها حياة بهذا الشكل يا مونتيرو روسي، إنها تدمر صحتها بنفسها، والآن تصبح على خير.

أطفأ بيريرا الشموع وتساءل عن السبب الذي دعاه لكي يحشر نفسه في هذه القصة بكاملها، لماذا آوى مونتيرو روسي، لماذا يتصل بمارتا، ويترك رسائل مشفرة، لماذا يدخل في أشياء ليست من شأنه؟ ربما لأن مارتا أصبحت نحيلة إلى درجة برز معها عظما كتفيها كأنهما جناحا دجاجة؟ ربما لأن مونتيرو روسي كان بلا أبوين يمكن أن يؤوياه؟ ربما لأنه كان في باريدي وأن الدكتور كاردوزو شرح له نظريته عن اتحاد الأرواح؟ لم يكن بيريرا يعرف، والآن أيضاً، لا يعرف الإجابة عن هذه التساؤلات. فضّل الذهاب للنوم، لأنه يريد الاستيقاظ باكراً في اليوم التالي لكي ينظم يومه بشكل جيد، إلا أنه قبل ذلك، توجه لحظة إلى المدخل كي يلقي نظرة على صورة زوجته. لم يكلمها بيريرا، ادّعى أنه أشار لها فقط بحركة ودودة، تعني إلى اللقاء.

23

ذلك الصباح من أواخر شهر آب، استيقظ بيريرا في الساعة الثامنة، كما ادّعى. كان قد أفاق مرات عديدة أثناء الليل، وسمع صوت المطر الذي يهطل بغزارة فوق أشجار نخيل الثكنة المقابلة. لايذكر أنه حَلُمَ. لابد أنه نام نوماً متقطعاً كان يتقاطع مع حلم مبعثر، ولكنه لايتذكره. كان مونتيرو روسي ينام فوق الأريكة في الصالون وقد ارتدى بيجامة حلّت عملياً محل غطاء يغطيه من شدة اتساعها عليه. كان ينام مطوياً على نفسه تماماً، كما لو أنه بردانا، فوضع بيريرا فوقه غطاء، بلطفٍ كيلا يوقظه. كان يتنقل في الشقة بحذر، كيلا يصدر ضجة، أعد لنفسه قهوة وتوجه إلى المتجر الكائن في زاوية الشارع لشراء بعض الحاجيات. اشترى أربع علب سردين، حوالى دزينة من البيض، بندورة، شمامة، خبزاً، ثماني كبيبات جاهزة مصنوعة من سمك المورة، لاتحتاج إلا للتسخين في الفرن. ثم رأى قطعة جامبون صغيرة مدخنة كانت تتدلى من كلاّب ومرشوشة بالفلفل الحلو، فاشتراها بيريرا. علق البقال قائلاً: هل قررت أن تملأ خزانة طعامك، يادوتّور بيريرا؟ أجاب بيريرا: حسناً، نعم، مدبرة منزلي لن تعود قبل منتصف أيلول، إنها عند أختها في سيتوبال، وعلي أن أتدبر أموري بنفسي، ولا أستطيع النزول للشراء كل يوم. قال البقال: إذا أردت شخصاً خَدوماً ينظف لك بيتك، أستطيع

أن أدلك على امرأة، تسكن أعلى قليلاً، باتجاه الـ غراشا، لديها طفل صغير وهجرها زوجها، إنها شخص موثوق. لا، شكراً، أجاب بيريرا، شكراً يا سيد فرانسيسكو، من الأفضل أن لا، فلا أعرف كيف ستتقبّل بييداد الأمر، هناك غيرة كبيرة بين مدبرات البيوت، وربما تشعر أنها سُلِبت. قد يكون ذلك فكرة مناسبة في الشتاء، أما الآن، فمن الأفضل انتظار عودة بييداد.

عاد بيريرا إلى بيته ورتب الحاجيات في البراد. كان مونتيرو روسي نائماً. ترك له بيريرا ورقة كتب عليها: «يوجد بيض بالجامبون، أو كبيبات من لحم المورة، يمكن تسخينها في الطنجرة مع قليل من الزيت، وإلا تتحول إلى خبيصة، تناوَلْ وجبة جيدة، وكن هادئاً، أعود عصراً، سأكلم مارتا، إلى اللقاء. بيريرا.»

خرج من بيته واتجه إلى مكتب التحرير. حين وصل، وجد سيليست في حجرتها، منشغلة تماماً بمراجعة الروزنامة. قال بيريرا: طاب يومك ياسيليست، ما الأخبار؟ لم تصلكَ أية مكالمة، ولايوجد بريد. شعر بيريرا بالارتياح، فقد كان من الأفضل ألا يكون قد بحث عنه أحد. صعد إلى المكتب، وفصل الهاتف، ثم تناول قصة كاميلو كاستيلو برانكو وأعدَّها كي ترسل إلى المطبعة. حوالى الساعة العاشرة، اتصل بالجريدة، أجابه صوت الآنسة فيليبا العذب. قال بيريرا: أنا دوتُور بيريرا، أود الكلام مع المدير. وصلته فيليبا بمكتب المدير. قال صوت المدير: ألو. قال بيريرا: أنا دوتُور بيريرا، أردت فقط أن أثبت وجودي، سيدي المدير. قال المدير: حسناً فعلت، لأنني بحثت عنك بالأمس، لكنك لم تكن في مكتب التحرير. قال بيريرا كاذباً: لم أكن أشعر بأنني على مايرام تماماً بالأمس، فبقيت في البيت، لأن لدي مشاكل قلبية. قال المدير أفهم يادوتُور بيريرا، لكنني أريد معرفة نواياك للصفحات الثقافية القادمة. أجاب بيريرا: سأنشر قصة لـ كاميلو كاستيلو برانكو، مثلما

نصحتني، سيدي المدير، أظن أن كاتباً برتغالياً من القرن التاسع عشر يفي بالغرض تماماً، ماقولك؟ ممتاز، أجاب المدير. لكني أريدك أن تحافظ أيضاً على زاوية «حدث ذات يوم». أجاب بيريرا: فكرت بـ ريلكه، لكني لم أفعل، أردت الحصول على موافقتك. قال المدير: ريلكه؟ سمعت بهذا الاسم. شرح له بيريرا قائلاً: رينير ماريا ريلكه، ولد في تشيكوسلوفاكيا، لكنه في الواقع شاعر نمساوي، كتب بالألمانية، وتوفي في عام ستة وعشرين. قال المدير: اسمع يابيريرا، تكاد الـ *لِشبُوا* تصبح، مثلما قلت لك، جريدة معجبة بالأجانب، لماذا لا تكتب عن شاعر من الوطن، لماذا لا تكتب عن شاعرنا الكبير كامويس؟ أجاب بيريرا: كامويس؟ ولكن كامويس توفي عام ألف وخمسمئة وثمانين، منذ حوالى أربع مئة عام. قال المدير: نعم، ولكنه شاعرنا الوطني الكبير، وهو على الدوام معاصر جداً. ثم أتعرف ماذا فعل أنطونيو فيرّو، مدير السكرتاريا القومية للدعاية، أو باختصار، ما فعلته وزارة الثقافة؟ لقد خطرت له فكرة لامعة، أن يجعل ذكرى كامويس، تتقاطع مع اليوم المخصص للعِرق البرتغالي، سيُحتفل في ذلك اليوم بشاعر الملحمة الكبير، وبالعِرق البرتغالي، وأنت تستطيع أن تكتب زاوية «حدث ذات يوم». اعترض بيريرا قائلاً: لكن ذكرى كامويس تصادف يوم العاشر من حزيران، سيدي المدير، فما هو معنى الاحتفال به في نهاية آب؟ شرح له المدير قائلاً: أولاً، في العاشر من حزيران، لم يكن لدينا صفحة ثقافية بعد، ويمكنك أن تعلن ذلك في المقال. ويبقى أن بإمكانك الاحتفاء بـ كامويس، شاعرنا الوطني الكبير، والإشارة إلى يوم العِرق. يكفي تلميح من بعيد لكي يفهم القراء. أجاب بيريرا معتذراً: عفواً سيدي المدير، ولكننا، حسناً، كنا في البداية من العِرق اللوزيتاني، ثم جاءنا الرومان والسلتيّون، ثم قدِمَ العرب، فأي عِرق هو الذي سنحتفل به، نحن البرتغاليين؟ أجاب المدير: العِرق البرتغالي، اعذرني يابيريرا، لكن اعتراضك لايعجبني كثيراً، نحن

برتغاليون، لقد اكتشفنا العالم، قمنا بالرحلات البحرية الرئيسية على الكرة الأرضية، وحين قمنا بها في القرن السادس عشر، كنا برتغاليين. هاك ما نحن، وهو ما عليك الاحتفال به يا بيريرا. صمت المدير قليلاً ثم تابع: بيريرا، في المرة الماضية خاطبتك رافعاً الكلفة معك، ولاأعرف لماذا أستمر في مخاطبتك بلغة رسمية. أجاب بيريرا: كما يريحك سيدي المدير، ربما يكون الهاتف هو السبب. قال المدير: هذا ممكن، أياً كان، اسمعني جيداً يابيريرا، أريد أن تكون الـ*لِشبَوا* جريدة برتغالية جداً، بما فيها صفحتها الثقافية، وإذا كنت لاتريد كتابة زاوية عن يوم العِرق، فاكتب على الأقل عن كامويس، فسيكون هذا إنجازاً بحد ذاته.

حيا بيريرا المدير وأغلق السماعة. فكر مستنتجاً: أنطونيو فيرّو، أنطونيو فيرّو الرهيب. الأنكى من ذلك أنه رجل ذكي وماكر. فكيف نفكر بأنه كان صديقاً لفرناندو بيسّوا. حسناً، ولكن بيسّوا أيضاً كان يعد نفسه من هؤلاء الأصدقاء. حاول كتابة مقال تحية لِكامويس، بقي فيه حتى الثانية عشرة والنصف ظهراً. ثم ألقى بكل شيء في المهملات. فكر: ليذهب كامويس إلى الجحيم، ذلك الشاعر الكبير الذي تغنى ببطولة البرتغاليين. قال لنفسه: ولكن أية بطولة! لبس سترته وخرج كي يذهب إلى مقهى أوركيديا. دخل وجلس إلى الطاولة المعتادة. حضر مانويل على عجل، فطلب بيريرا سلطة سمك. أكل بهدوء، بهدوء جداً، ثم اتجه إلى الهاتف. كان يمسك بيده الورقة الصغيرة وعليها الرقمان اللذان أعطاه إياهما مونتيرو روسي. رن الرقم الأول طويلاً، ولكن أحداً لم يجب. كرر بيريرا المحاولة، منعاً لاحتمال ارتكابه خطأ ما. رن الرقم طويلاً لكن أحداً لم يجب. طلب الرقم الآخر. أجابه صوت مؤنث. قال بيريرا، أود الكلام مع الآنسة ديلونيه. أجاب الصوت الأنثوي بحذر، لا أعرفها. كرر بيريرا قائلاً: مرحباً، أنا أبحث عن الآنسة ديلونيه. سأل الصوت المؤنث: عذراً ولكن من تكون أنت؟ قال بيريرا: اصغِ إلي ياسيدتي، أنا أحمل رسالة

عاجلة لِـ ليز ديلونيه، دعيني أكلمها من فضلك. قال الصوت المؤنث: لا يوجد أية ليزهنا، يبدو لي أن في الأمر التباساً، من الذي أعطاك هذا الرقم؟ أجاب بيريرا: لا يهم من الذي أعطاني إياه، على أية حال إذا كان الكلام مع ليز غير ممكن، دعيني على الأقل أكلم مارتا. قال الصوت الأنثوي متعجباً: مارتا؟ مارتا ماذا؟ يوجد الكثير من الفتيات اللواتي يدّعين مارتا في هذا العالم. تذكر بيريرا أنه لم يكن يعرف كنية مارتا، فقال عندئذٍ ببساطة: مارتا شابة نحيلة ذات شعر أشقر تسمى أيضاً ليز ديلونيه، أنا صديق، وأحمل لها رسالة هامة. قال الصوت المؤنث: آسفة، لا يوجد هنا لا مارتا ولا ليز، طاب يومك. سمع في الهاتف صوت إغلاق الخط، ووجد بيريرا نفسه ممسكاً بسماعة الهاتف. أعاد السماعة إلى مكانها وذهب للجلوس إلى طاولته. سأله مانويل الذي مر بقربه: هل تريد شيئاً آخر يادوتّور بيريرا؟ طلب بيريرا شراب ليمون دون سكر، ثم سأل: هل توجد أنباء هامة؟ قال مانويل: سيخبرونني بها هذا المساء في الساعة الثامنة، لدي صديق يلتقط راديو لندن، سأخبرك بكل شيء غداً إذا أردت.

شرب بيريرا كأسه، وسدد حسابه. خرج وتوجه إلى مكتب التحرير. وجد سيليست في حجرتها، وهي ماتزال تدقق في الروزنامة. سألها بيريرا: هل من أخبار؟ قالت سيليست: جاءتك مكالمة هاتفية، كانت امرأة، لكنها لم تقل لي لماذا تتصل. سأل بيريرا: هل تركتْ اسمها؟ أجابت سيليست: كان اسماً أجنبياً، لكني لاأذكره. قال لها بيريرا معاتباً: لماذا لم تكتبيه؟ عليك أن تقومي بدور عاملة المقسم يا سيليست، وتسجلي الملاحظات. أجابت سيليست: كتابتي سيئة بالبرتغالية، فتخيل إذن كيف سيكون الأمر مع الأسماء الأجنبية. كان اسماً معقداً. شعر بيريرا بضربة في قلبه وسأل: وماذا قالت لك هذه المرأة، ما الذي قالته لك ياسيليست؟ قالت إنها تحمل رسالة لك وإنها تبحث عن السيد روسي. ياله من اسم طريف. أجبتها أنه لا يوجد هنا أحد باسم روسي، هنا مقر تحرير

الصفحة الثقافية في جريدة *لِشْبُوا*. وهكذا اتصلت بمكتب الجريدة المركزي، لأني ظننت أني سأجدك هناك، أردت أن أخبرك بالأمر، لكنك لم تكن هناك، وتركت لك رسالة بأن سيدة أجنبية تبحث عنك، سيدة اسمها شيء يشبه ليز. الآن يحضرني الاسم. سأل بيريرا: وهل قلت للجريدة إنها تبحث عن السيد روسي؟ أجابت سيليست بتعبير ماكر، لا، دوتّور بيريرا، هذا، لم أقله، فهو يبدو لي بلا فائدة، قلت فقط بأن سيدة تدعى ليز تبحث عنك، لا تقلق يادوتّور بيريرا، إذا أرادوا أن يجدوك فسوف يجدونك. نظر بيريرا إلى ساعته. إنها الرابعة بعد الظهر. عدل عن الصعود، ودّع سيليست وقال لها: اسمعي ياسيليست، أنا عائد إلى بيتي، لأني أشعر بتوعك. إذا اتصل بي أحد، قولي له أن يكلمني في البيت، ربما لا أحضر غداً إلى المكتب، استلمي البريد بدلاً مني.

كانت الساعة تقارب السابعة عندما وصل إلى بيته. تباطأ طويلاً في تيريرو دو باشو، وهو ينظر إلى العبّارات التي كانت تعبر إلى الضفة الأخرى من نهر تاج. كانت فترة بعد الظهر جميلة، وأراد بيريرا الاستمتاع بها. أشعل سيجاراً واستنشق دخانه بشراهة. كان جالساً على مقعد مطل على النهر، جاء متسول معه أكورديون، جلس إلى جواره وعزف له أغنيات الكوامبرا القديمة.

حين عاد بيريرا إلى بيته لم يرَ مونتيرو روسي في الحال، الأمر الذي أقلقه، كما ادّعى. لكن مونتيرو روسي كان في الحمام يغتسل. صاح مونتيرو روسي: أنا أحلق ذقني، يادوتّور بيريرا، أكون معك بعد خمس دقائق. خلع بيريرا سترته وأعد المائدة. أحضر أطباق كالداس دا رينها، تلك التي وضعها مساء الأمس. وعلى المائدة وضع شمعتين كان قد اشتراهما في الصباح نفسه. اتجه بعدها إلى المطبخ وفكر فيما يمكن إعداده للعشاء. لا يعرف ما الذي دعاه لإعداد طبق إيطالي، رغم أنه لم يكن يعرف المطبخ الإيطالي.

ادّعى بيريرا أنه فكر باختراع طبق. اقتطع شريحة سميكة من الجامبون وقطعها إلى مكعبات صغيرة، ثم تناول بيضتين، خفقهما، أضاف جبناً مبشوراً، أفرغ الجامبون، وكذلك المردقوش والزعتر البري، خلط الكل جيداً، ثم وضع طنجرة ماء كي تغلي من أجل المعكرونة. حين بدأ الماء بالغليان، أسقط فيها المعكرونة التي كانت في خزانة الطعام منذ وقت لابأس به. جاء مونتيرو روسي ندياً مثل وردة، مرتدياً قميص بيريرا الكاكي اللون، الذي كان يغطيه مثل ملاءة. قال بيريرا: خطرت لي فكرة إعداد طبق إيطالي، لا أدري إن كان إيطالياً حقاً، ربما كان اختراعاً خاصاً، ولكنه على الأقل طبق من المعكرونة. عبر مونتيرو روسي عن تعجبه، وقال: يا للبهجة، لم آكل معكرونه منذ قرون. أشعل بيريرا الشمعتين وصب المعكرونة في الصحنين. قال: حاولت الاتصال بمارتا، ولكن لا أحد يجيب على الرقم الأول، وعلى الثاني، تتظاهر المرأة التي تجيب، بالغباء. لقد قلت بأنني أريد التحدث مع مارتا، ومع ذلك لم أستفد شيئاً. حين وصلتُ إلى المكتب، قالت لي البوابة إن شخصاً بحث عني، ومن المحتمل أنها كانت مارتا، لكنها تبحث عنك أنت. ربما كان ذلك تصرفاً متهوراً من جانبها. على أية حال، هناك الآن أحد ما يعرف أني على اتصال بك. أظن أن ذلك سيخلق المشاكل. سأل مونتيرو روسي: وأنا ماذا يجب أن أفعل؟ أجاب بيريرا: إذا كان لديك مكان أكثر أمناً يجدر بك أن تذهب إليه، وإلا فابقَ هنا، وسوف نرى. وضع الكرز المغطس بالعرق على الطاولة، وأخذ واحدة بدون الشراب. ملأ مونتيرو روسي لنفسه كأساً. في تلك اللحظة سمعا طرقاً على الباب. كان طرقاً فيه تصميم كما لو أن أحداً كان يريد اقتحام الباب. تساءل بيريرا كيف تمكّن أحد ما من اجتياز الباب الخارجي للمبنى، وبقي ساكتاً بضع ثوان. تكرر الطرق بصورة غاضبة. سأل بيريرا وهو ينهض: من الطارق؟ ماذا تريدون؟ أجاب صوت: افتح، بوليس. افتح الباب أو نفجره بطلقات المسدس. تراجع مونتيرو

روسي بسرعة نحو الغرف. وجد في نفسه فقط القوة ليقول: الأوراق، دوتّور بيريرا، اخفِ الأوراق. طمأنه بيريرا قائلاً إنها في أمان، وتوجه نحو المدخل كي يفتح الباب. عندما مر من أمام صورة زوجته، ألقى نظرة شراكة إلى تلك الابتسامة البعيدة، ثم فتح الباب، كما ادّعى.

24

ادّعى بيريرا أنه واجه ثلاثة رجال بثياب مدنية، وأنهم كانوا مسلحين بالمسدسات. كان الأول الذي دخل، قصيراً ونحيلاً، بشاربين دقيقين ولحية صغيرة كستنائية اللون. قال النحيل القصير، بلهجة من يأمر: بوليس سياسي. علينا أن نفتش الشقة، نبحث عن شخص. اعترض بيريرا قائلاً: أرني بطاقة تعريف بشخصيتك. توجه النحيل القصير إلى رفيقيه، وهما شخصان فظان يرتديان ثياباً قاتمة اللون، وقال: أيه ياشباب، سمعتم، ما رأيكم؟ سدد أحد المرافقين مسدسه إلى فم بيريرا وهسَّ قائلاً: أيكفيك هذا كبطاقة تعريف، أيها السمين المشحم؟ هيا يا شباب، لا تعاملوا لي الدوتّور بيريرا بهذا الشكل، إنه صحفي طيب، يكتب في صحيفة محترمة بكل نواحيها، ربما كانت كاثوليكية زيادة عن اللزوم قليلاً، لا أنكر ذلك، إلا أنها تلتزم بالمواقف الصحيحة. ثم تابع، اسمع يادوتّور بيريرا، لا تجعلنا نضيع الوقت، لم نأت لكي نثرثر، ولا نحب إضاعة وقتنا، ثم إننا نعلم أنه لا شأن لك في الموضوع، أنت شخص شهم. أنت ببساطة، لم تفهم مع من كنت تتعامل، لقد وضعت ثقتك في شخص مشبوه. لكننا لا نريد أن نجلب لك المتاعب، فقط دعنا نؤدِّ عملنا. قال بيريرا: أنا أدير الصفحة الثقافية في الـ*لِشبَوا*، أريد أن أكلم أحداً، أريد أن أهتف لمديري، هل يعرف أنكم في بيتي؟ أجاب

النحيل القصير بصوت معسول: أتظن أننا إذا ما أردنا القيام بنشاط بوليسي علينا أن نخطر مديرك أولاً؟ ما الذي تقوله يا رجل؟ قال بيريرا بعناد: أنتم لستم من البوليس، ولاتحملون صفة رسمية، أنتم بالثياب المدنية وليس لديكم أي إذن للدخول إلى بيتي. توجه النحيل القصير مجدداً إلى الرجلين الفظين، بابتسامة خفيفة وقال: مالك المكان عنيد، يا شباب، لا أعلم ما الذي يجب عمله من أجل إقناعه. وجّه الرجل الذي كان يسدد المسدس نحو بيريرا، ضربة قوية بساعده إلى بيريرا، جعلته يترنح. قال النحيل القصير: توقف يافونسيكا، لاتفعل هذا، لا يجوز أن تسيء معاملة الدوتّور بيريرا، وإلا فسوف تروّعُهُ، إنه رجل هش، رغم ضخامة حجمه، يهتم بالثقافة، إنه مثقف. الدوتّور بيريرا يحتاج إلى إقناع بشكل لطيف، وإلا فسوف يتبول في ثيابه. وجّه الفظ الذي كان يدعى فونسيكا ضربةً ساعدٍ أخرى إلى بيريرا. ترنح بيريرا من جديد، كما ادّعى. قال النحيل القصير: إن لك يداً نشيطة جداً يافونسيكا، عليك أن تتمالك نفسك، وإلا خربت علينا العمل، ثم توجه إلى بيريرا وقال له: دوتّور بيريرا، كما قلت لك، ليس لدينا شيء ضدك، أتينا فقط كي نلقن درساً صغيراً لشاب موجود عندك، وهو يحتاج لذلك الدرس، لأنه لا يعرف قيم الوطن، لقد أضاعها، المسكين، ونحن أتينا لكي نجعله يستعيدها. فرك بيريرا خده وهمس: لا يوجد أحد هنا. ألقى النحيل القصير نظرة حوله وقال: اسمع دوتّور بيريرا، سهّل علينا مهمتنا، علينا فقط أن نسأل الشاب الذي هو ضيفك عن موضوعين أو ثلاثة، مجرد استجواب صغير، حتى يستعيد القيم الوطنية، لا نريد شيئاً أكثر من ذلك، جئنا من أجل ذلك. أصر بيريرا: دعوني إذن أتصل بالبوليس. ليأتوا هم وليصحبوه إلى قسم الشرطة، هناك تُجرى الاستجوابات، وليس داخل شقة. قال النحيل بابتسامة صغيرة: أنت بالفعل لست متفهماً. شقتك نموذجية لإجراء استجواب خاص مثل استجوابنا. بوابة بنائك غير موجودة، جيرانك سافروا

إلى بورتو، الأمسية هادئة وهذا المبنى لذيذ للغاية، إنه أكثر سرية من مكتب للبوليس.

أشار النحيل إلى الفظ الذي دعاه فونسيكا، فدفع هذا بيريرا، حتى غرفة الطعام. نظر الرجال حولهم لكنهم لم يروا أحداً، رأوا فقط المائدة المُعَدّة، مع بقايا وجبة الطعام. قال النحيل القصير، عشاء حميمي، يادوتّور بيريرا، أرى أنك أعددت عشاء صغيراً حميمياً مع الشموع، وكل مايلزم، ياله من شيء رومانتيكي. لم يجب بيريرا. قال النحيل القصير بهيئة معسولة: أنت أرمل ولاتعاشر النساء. وكما ترى، أعرف عنك كل شيء، ألا يعجبك الشبان الصغار بالصدفة؟ مرَّ بيريرا بيده على خده من جديد وقال: أنت شخص مقزز، وكل ما يحدث مقزز. تابع النحيل القصير: هيا، يادوتّور بيريرا، الرجل هو الرجل، وأنت تعرف ذلك مثلي، وإذا وجد الرجل فتى جميلاً أشقر، ذا مؤخرة صغيرة جميلة، يمكن فهم ذلك. ثم استأنف كلامه بلهجة قاسية ومصممة: هل يجب أن نقلب البيت رأساً على عقب، أم أنك تفضل أن نتفق؟ قال بيريرا: إنه هنا، في المكتب أو في غرفة النوم. أعطى النحيل القصير أوامره للرجلين الفظين. قال: فونسيكا، لاتجعل يدك ثقيلة جداً، لا أريد مشاكل، يكفي إعطاؤه درساً صغيراً، ومعرفة ماعلينا معرفته، وأنت يا ليما، أحسِنْ التصرف، أعرف أنك أحضرت الهراوة وأنك تخفيها تحت قميصك. ولكن تذكَّرْ، لا أريد ضربات على الرأس، إذا دعت الحاجة على الكتفين والرئتين، فهذا يؤلم أكثر لكنه لا يترك آثاراً. أجاب الفظان: حسناً أيها القائد. دخلا المكتب وأغلقا الباب خلفهما. قال النحيل القصير: جيد، جيد، يادوتّور بيريرا، لنثرثر قليلاً، ريثما يقوم مساعداي بالعمل. كرر بيريرا: أريد أن أكلم البوليس. ابتسم النحيل القصير وقال: البوليس؟ ولكن البوليس هو أنا، يادوتّور بيريرا، أو على الأقل أنا أحل محله، لأن البوليس أيضاً، ينام في الليل. تعرف أن لدينا بوليساً يحمينا طوال النهار، ولكنه يذهب للنوم في المساء،

لأنه يكون منهكاً، بوجود جميع الأشقياء السارحين، بوجود جميع هؤلاء الأشخاص الذين فقدوا حس الوطن، مثل ضيفك، ولكن قل لي يا دوتّور بيريرا، لماذا حشرت نفسك في هذا المأزق؟ أجاب بيريرا: أنا لم أحشر نفسي في أي مأزق، كل مافعلته هو أني وظفت متدرباً لأجل الـ*لِشُبّو*. بالطبع دوتّور بيريرا، بالطبع، ولكن كان عليك أن تستعلم أولاً، كان عليك أن تستشير البوليس أو مديرك، وأن تعطي إحداثيات متدربك المزعوم، أتسمح لي بأخذ كرزة بالعرق؟

ادّعى بيريرا أنه نهض في تلك اللحظة من كرسيه. كان قد جلس لأنه أحس بصعود قلبه إلى حلقه، لكنه في تلك اللحظة، نهض وقال: سمعت صرخات، أريد الذهاب لرؤية مايحدث في غرفتي. سدد النحيل القصير مسدسه باتجاهه، وقال: لو كنت مكانك يا دوتّور بيريرا، لما فعلت. رجالي ينفذون الآن عملاً دقيقاً، ولن يسرُّك حضورك له. أنت رجل حساس، يا دوتّور بيريرا، رجل فكر. ثم إنك تعاني من مشاكل في القلب، وبعض المناظر لن تكون مناسبة لك. أصر بيريرا: أريد الكلام مع مديري. ابتسم النحيل القصير ابتسامة ساخرة وقال: في هذه الساعة، يغط مديرك في النوم، وربما ينام بين أحضان امرأة جميلة، أنت تعرف أن مديرك رجل حقيقي، يادوتّور بيريرا، رجل بخصيتين، وليس مثلك أنت من يبحث عن أقفية الشبان الشقر. انحنى بيريرا إلى الأمام وصفعه. فضربه النحيل فجأةً بالمسدس، وراح بيريرا ينزف من فمه. قال الرجل: ما كان يجب أن تفعل هذا يا دوتّور بيريرا. طالَبوني أن أُظهِر لك الاحترام، لكن لكل شيء حدود. كان بوسعي أن أزرع طلقة رصاص في فمك، بل أتمنى حتى أن أفعل ذلك بطيبة خاطر، وإن لم أفعل فذلك فقط لأنهم أوصوني بأن أعاملك باحترام، ولكن لا تفرط في امتحان صبري، يابيريرا، لا تفرط، فربما أفقد صبري.

ادّعى بيريرا أنه سمع عندئذٍ، صرخة أخرى مكتومة ، وأنه

اندفع نحو باب المكتب. لكن النحيل القصير وقف عائقاً بوجهه ودفعه. كانت الدفعة أقوى من كتلة بيريرا، فتراجع بيريرا. اسمع دوتّور بيريرا، لا تجبرني على استعمال مسدسي، فإن لدي رغبة شديدة لأن أطرحك بطلقة في فمك، أو ربما في قلبك، نقطة ضعفك، لكني لا أفعل، لأننا لانريد أمواتاً، جئنا فقط لنلقن درساً في الوطنية، وقليلاً من الوطنية لك أنت أيضاً، تنفعك، نظراً لأن جريدتك لا تنشر شيئاً إلا عن الكتّاب الفرنسيين. عاد بيريرا للجلوس، كما ادّعى، وقال: الكتّاب الفرنسيون هم وحدهم من يملكون الشجاعة في لحظة كهذه اللحظة. قال النحيل القصير: دعني أقل لك إن الكتّاب الفرنسيين هم عبارة عن خراء، يجب أن نصفّهم جميعاً إلى جدار ونطلق عليهم النار، وحين يصبحون في عداد الموتى، يجب أن نبول عليهم. قال بيريرا: أنت شخص سوقي. أجاب الرجل: سوقي ولكني وطني، ولست مثلك يا دوتّور بيريرا، يا من تبحث عن شراكة مع كتّاب فرنسيين.

في تلك اللحظة فتح الفظان الباب. كانا يبدوان عصبيين ومنهكين. قالا: لا يريد الشاب أن يتكلم، لقد أعطيناه درساً، استعملنا أسلوب القوة، ربما من الأفضل أن ننسحب. سأل النحيل القصير: هل سببتما كارثة؟ أجاب الذي كان يدعى فونسيكا: لا أعلم، أظن أنه يحسن الانصراف. وهرع نحو الباب، يتبعه رفيقه. اسمع يا دوتّور بيريرا، أنت لم ترنا مطلقاً في بيتك، ولا تتماكر، أسقط صداقاتك من حسابك، واعتبر أن الأمر كان زيارة مجاملة. ربما نأتي في المرة القادمة من أجلك. ادّعى بيريرا أنه أغلق الباب بالمفتاح وسمعهم ينزلون الدرج. توجه بعد ذلك إلى غرفة نومه ووجد مونتيرو روسي مقلوباً على السجادة. ضربه بيريرا ضربة خفيفة على وجهه وقال: مونتيرو روسي، لاتدع نفسك تستسلم، لقد انقضى الأمر الآن. لكن مونتيرو روسي لم يعطِ أية إشارة حياة. عندها ذهب بيريرا إلى الحمام، بلل منشفة ومسح بها وجهه. كرر: مونتيرو روسي، كل

شيء انتهى، لقد ذهبوا، أفِقْ. في تلك اللحظة فقط، لاحظ بيريرا أن منشفة اليدين قد انتقعت بالدم، وأن شعر مونتيرو روسي كان ملطخاً بالدم. كانت عينا مونتيرو روسي جاحظتين، وكان يحدق بالسقف. وجه إليه بيريرا صفعة خفيفة أخرى، لكن مونتيرو روسي لم يتحرك. عندها قاس له بيريرا نبضه، بَيْدَ أنّ الحياة كانت قد كفت عن الجريان في شرايين مونتيرو روسي. أغلق له عينيه الصافيتين الجاحظتين، وغطى له وجهه بالمنشفة. ثم مد له رجليه، كيلا يدعه يتيبّس بهذا الشكل، مددهما له كما يجب أن تمدد رجلا ميت. فكر أن عليه أن يتصرف بسرعة كبيرة، فلم يعد هناك كثير من الوقت بعد الآن، كما ادّعى بيريرا.

25

ادّعى بيريرا أن فكرة مجنونة خطرت له، ولكنه قد يستطيع أن يضعها موضع التطبيق. ارتدى سترته وخرج. كان يوجد أمام الكاتدرائية مقهى يظل مفتوحاً حتى وقت متأخر من المساء، وفيه هاتف. دخل بيريرا ونظر حوله. في المقهى كان هناك مجموعة من الساهرين الذين يلعبون بالورق مع صاحب المقهى. كان النادل فتى نعساً يجلس بكسل خلف طاولة المحاسبة. طلب بيريرا كأس شراب ليمون، توجه نحو الهاتف وطلب رقم مستوصف العلاج الطبيعي بحمامات البحر في باريدي. طلب الدكتور كاردوزو. قال صوت عاملة الهاتف: الدكتور كاردوزو في غرفته، من يطلبه؟ قال بيريرا: أنا دوتّور بيريرا، يجب أن أكلمه بشكل عاجل جداً. قالت عاملة الهاتف: سأناديه لك، ولكن عليك الانتظار بضع دقائق، الوقت اللازم لنزوله. انتظر دوتّور بيريرا بصبر إلى أن وصل الدكتور كاردوزو. قال بيريرا: مساء الخير دكتور كاردوزو، أريد أن أقول لك شيئاً هاماً، ولكني لا أستطيع الآن. ماذا يحدث يادوتّور بيريرا؟ سأل الدكتور كاردوزو، هل تشعر أنك على غير مايرام؟ أجاب بيريرا: بالفعل، أشعر بأنني على غير مايرام، ولكن ليس هذا هو المهم، الواقع أن شيئاً خطيراً حدث في بيتي، لا أدري إن كان هاتفي الشخصي مراقباً، ولكن لا يهم، في الوقت الحالي لا أستطيع أن أقول

لك شيئاً آخر، أحتاج لمساعدتك، دكتور كاردوزو. قال الدكتور كاردوزو: قل بأية طريقة يمكنني ذلك؟ قال بيريرا: حسناً يادكتور كاردوزو، سأتصل بك غداً عند الظهر، عليك أن تقدم لي خدمة، عليك أن تتظاهر بأنك مسؤول كبير في الرقابة، عليك أن تقول بأن مقالي قد تلقى تأشيرة السماح بالنشر، هذا كل شيء. رد الدكتور كاردوزو: لاأفهم. قال بيريرا: اسمع يادكتور كاردوزو، أنا أتصل بك من مقهى ولا أستطيع أن أقدم لك تفسيرات، لدي في البيت مشكلة لا تستطيع حتى أن تتخيلها، ولكنك ستعلم عنها في عدد بعد الظهر من الـ*لِشْبُوَا*، سيكتب فيه كل شيء بالأسود على خلفية أبيض، ولكن عليك أن تسدي لي خدمة كبيرة، عليك أن تدّعي أن مقالي لقي موافقتك، هل فهمت؟ عليك أن تقول بأن البوليس البرتغالي لا يخشى الفضائح، هو بوليس نظيف، لا يخاف الفضائح. قال الدكتور كاردوزو: فهمت، وأنتظر اتصالك ظهر غدٍ.

عاد بيريرا إلى بيته. توجه إلى غرفة النوم ورفع المنشفة عن وجه مونتيرو روسي. غطاه بملاءة. ثم ذهب إلى المكتب وجلس أمام الآلة الكاتبة. كتب العنوان: *اغتيال صحفي*. ثم بدأ بالكتابة من أول السطر: «كان اسمه فرانسيسكو مونتيرو روسي، من أصل إيطالي. كان يعمل لصالح جريدتنا، من خلال مقالات عادية ومقالات تأبينية. كتب نصوصاً عن كتاب كبار من عصرنا، مثل مايا كوفسكي، مارينيتي، دانونسيو، غارسيا لوركا. لم تنشر مقالاته بعد، ولكنها قد تنشر يوماً ما. كان شاباً مرحاً يحب الحياة، ولكنه بدلاً من الكتابة عن الحياة، وُظِّف لكي يكتب عن الموت، وهي المهمة التي لم يتملص منها. هذه الليلة جاء الموت يطلبه. مساء الأمس وبينما كان يتعشى عند الدوتّور بيريرا، مدير تحرير الصفحة الثقافية لصحيفة الـ*لِشْبُوَا*، وكاتب هذا المقال، ظهر فجأةً، ثلاثة رجال مسلحين في الشقة. قدموا أنفسهم على أنهم من البوليس السياسي، لكنهم لم يبرزوا أية وثيقة تثبت أقوالهم. نميل إلى استبعاد مقولة كونهم

رجال بوليس حقيقيين، لأنهم كانوا مدنيين، ولأننا نأمل ألا يكون رجال البوليس في بلدنا ممن يلجؤون إلى مثل هذه الأساليب. كانوا أشخاصاً مضطربين، يتصرفون بالتواطؤ مع لاندري من، وسيكون مفيداً أن تحقق السلطات في هذا الحادث الدنيء. كان قائدهم رجلاً نحيلاً وقصيراً، بشاربين ولحية صغيرة، كان الآخران يدعوانه القائد. نادى القائد الرجلين الآخرين عدة مرات باسميهما. فإذا لم تكن الأسماء مزورة، فإنهما يسميان فونسيكا وليما، وهما رجلان طويلان، قويان، أسمرا اللون، ويبدوان قليلي الذكاء. وفي الوقت الذي كان فيه الرجل النحيل القصير يحتجز كاتب هذا المقال بمسدسه المصوب إلى خده، كان فونسيكا وليما قد جرّا مونتيرو روسي إلى غرفة النوم لكي يستجوباه، وفق ماصرحا به هما بنفسيهما. سمع كاتب هذا المقال ضربات وصرخات مكتومة. ثم قال الرجلان: إن العمل قد تم. أسرع الثلاثة في مغادرة شقة كاتب هذا المقال، وهم يهددونه بالموت إن هو أفشى القضية. ذهب كاتب هذا المقال إلى غرفة النوم، ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى إثبات وفاة الشاب مونتيرو روسي. لقد ضُرب حتى الإدماء، ضربات عنيفة بهراوة، أو بعقب مسدس، مما أدى لتهشيم جمجمته. جثته موجودة الآن في الطابق الثاني من شارع سوداد رقم 22، في بيت كاتب هذا المقال. كان يحب فتاة جميلة ورقيقة، لانعرف اسمها. نعرف فقط أنها ذات شعر نحاسي اللون، وأنها تحب الثقافة. نتوجه لهذه الشابة، إذا كانت تقرؤنا، بأصدق التعازي، وأحرّ التحيات. ندعو السلطات المختصة، أن تولي كل الاهتمام لأحداث العنف هذه، التي ترتكب اليوم في البرتغال، تحت غطاء هذه السلطات، وربما بالتواطؤ مع بعض رجالها.»

نزل بيريرا إلى سطر جديد أسفل المقال، إلى الزاوية اليمنى، وكتب اسمه: بيريرا. وقع باسمه الأول فقط، بيريرا، لأنه الاسم الذي

يعرفه به الجميع، ولأنه كان يوقع جميع مقالاته في المنوعات، بهذا الاسم طيلة سنين عديدة.

رفع ناظريه نحو النافذة، فرأى الفجر وهو يبزغ فوق أغصان شجرات النخيل في الثكنة المقابلة. سمع صوت بوق. تمدد بيريرا على أريكة ونام. حين أفاق، كان قد انقضى جانب من النهار.. نظر بيريرا بقلق شديد إلى ساعة الحائط. ادّعى أنه فكر أن عليه الإسراع. حلق ذقنه، بلل وجهه بالماء البارد وخرج. وجد سيارة أجرة أمام الكاتدرائية. طلب نقله إلى مكتب التحرير. كانت سيليست في حجرتها، سلمت عليه بهيئة ودودة. سألها بيريرا: لاشيء لي؟ أجابت سيليست: لاشيء جديداً، دوتّور بيريرا، سوى أنهم أعطوني أجازة لمدة أسبوع. وتابعت وهي تُريه الروزنامة، أعود يوم السبت القادم، وعليك أن تتصرف بدوني لمدّة أسبوع. في هذه الأيام، الدولة تحمي الناس الأكثر ضعفاً، أقصد الناس من أمثالي، ولسنا هيئة جماعية دون فائدة. همس بيريرا: سنحاول ألا نفتقدك كثيراً، وصعد السلالم. دخل مكتب التحرير وتناول من الأرشيف، الملف الذي كتب عليه «مقالات تأبين». وضعه في محفظة جلدية وخرج. توقف في مقهى أوركيديا وفكر بأن لديه وقتاً للجلوس خمس دقائق وطلب شيء يشربه. سأله مانويل وهو يجلس إلى الطاولة، بلهجة مليئة بالرعاية والاهتمام: شراب ليمون دوتّور بيريرا؟ أجاب بيريرا: لا، سآخذ كأس بورتو صِرف. قال مانويل: هذا جديد، دوتّور بيريرا، وفي مثل هذه الساعة، على كل حال أنا مسرور، فهذا يعني أن أحوالك أفضل. أحضر له مانويل كأساً وترك له الزجاجة، وقال: اسمع يادوتّور بيريرا، أدع لك الزجاجة، إذا أحببت أن تأخذ كأساً آخر، فقط اسكب لنفسك، وإن أردت سيجاراً، فسأحضره لك في الحال. قال بيريرا: أحضر لي سيجاراً خفيفاً، ولكن بالمناسبة، مانويل، أنت لديك صديق يلتقط راديو لندن، ما الأخبار؟ قال مانويل:

يبدو أن الجمهوريين يتلقون ضربات متواصلة. وواصل بصوت أخفض: ولكن، أتعرف يادوتّور بيريرا، لقد تكلموا عن البرتغال أيضاً. قال بيريرا: آ، حقاً؟ وماذا يقولون عنا؟ أجاب النادل، يقولون إننا نعيش في ظل دكتاتورية، وأن البوليس يعذب الناس. سأل بيريرا: وأنت، ما قولك يا مانويل؟ حك مانويل رأسه وردّ: وأنت، مارأيك بهذا يا دوتّور بيريرا؟ أنت تعمل في الصحافة، وتعرف شيئاً عن هذه الأمور. صرح بيريرا: أنا أقول إن الانجليز معهم حق. أشعل سيجاره، ودفع حسابه، ثم خرج وركب سيارة أجرة لكي يتوجه إلى المطبعة. حين وصل وجد ناظر المطبعة منهمكاً تماماً. قال الناظر: خلال ساعة، تُرسل صفحات الجريدة إلى الآلات، يادوتّور بيريرا، لقد أحسنت صنعاً بوضع قصة كاميلو كاستيلو برانكو، إنها جميلة جداً، لقد قرأتها في المدرسة وأنا طفل، لكنها ماتزال جميلة جداً. قال بيريرا: يجب تقليصها عموداً، فلدي هنا مقال يقفل الصفحة الثقافية، إنه مقال تأبيني. مد له بيريرا الورقة، قرأها الناظر وحك رأسه، وقال: هذه قضية حساسة يادوتّور بيريرا، تحضرها لي في اللحظة الأخيرة دون وجود تأشيرة من الرقابة، يبدو لي أنه يوجد هنا كلام عن وقائع خطيرة جداً. قال بيريرا: اسمع ياسيد بيدرو، نحن نعرف بعضنا منذ مايقرب الثلاثين عاماً، منذ كنت أكتب في المنوعات، في أهم جريدة في لشبونة، هل سببتُ لك المتاعب يوماً؟ أجاب الناظر: أنت لم تسبب لي المتاعب، لكن الزمن تغير، ولم يعد كما في الماضي، توجد الآن كل هذه البيروقراطية وعلي أن أحترمها يا دوتّور بيريرا. قال بيريرا: الرقابة أعطتني الإذن بالنشر بشكل شفهي، لقد اتصلت منذ نصف ساعة، من مكتب التحرير، تحدثت إلى النقيب لورنزو، ووافق. اعترض الناظر قائلاً: ولكن من الأفضل الاتصال بالمدير. تنهد بيريرا تنهيدةً عميقةً وقال: حاضر، لاتوجد مشكلة، اتصل به ياسيد بيدرو. طلب الناظر الرقم، وبقي بيريرا هناك يستمع إليه، وقد وصل

قلبه إلى حلقه. فهمَ أن الناظر يتكلم إلى الآنسة فيليبا. قال السيد بيدرو: خرج المدير للغداء، تكلمتُ إلى السكرتيرة، ولن يعود قبل الساعة الثالثة. قال بيريرا: في الثالثة، تكون الجريدة جاهزة. لا نستطيع الانتظار حتى الثالثة. قال الناظر: لا، في الحقيقة لانستطيع، لا أدري ماالعمل يادوتّور بيريرا. اقترح بيريرا قائلاً: اسمع، أفضل شيء نفعله هو الاتصال بالرقابة مباشرةً، ربما يحالفنا النجاح ونكلم النقيب لورنزو. قال الناظر بتعجب، كما لو أنه كان خائفاً من هذا الاسم: النقيب لورنزو، معه مباشرةً؟ قال بيريرا بخفة متكلفة: إنه صديق. لقد قرأت له مقالي هذا الصباح، إنه موافق تماماً، وأنا أكلمه كل يوم ياسيد بيدرو. إنه عملي. أخذ بيريرا سماعة الهاتف وطلب رقم عيادة العلاج الطبيعي في باريدي. سمع صوت الدكتور كاردوزو. قال بيريرا: ألو، نقيب، أنا دوتّور بيريرا من *اللِشبُوا*، أنا موجود في المطبعة لكي أدرج المقال الذي قرأته لك هذا الصباح، لكن عامل المطبعة متردد، بسبب عدم وجود تأشيرتك المكتوبة، حاول أن تقنعه قليلاً، سأصلك به. مد السماعة للناظر، وراقبه بينما كان يتكلم. بدأ السيد بيدرو بالإذعان. قال: بالطبع سيدي النقيب، حاضر سيدي النقيب. ثم وضع السماعة ونظر إلى بيريرا. سأل بيريرا: إذن؟ قال عامل المطبعة: يقول بأن البوليس البرتغالي لايخشى من هذه الفضائح، وهناك أشقياء سارحون، يجب فضح أمرهم، ومقالك يجب أن ينشر اليوم يادوتّور بيريرا، هذا ماقاله لي. ثم تابع: قال لي أيضاً: قل لدوتّور بيريرا، أن يكتب مقالاً عن الروح، لأننا جميعاً نحتاج إلى ذلك، هذا ما قاله لي يادوتّور بيريرا. قال بيريرا: لا بد أنه أراد المزاح، على أية حال سأكلمه غداً.

ترك مقاله للسيد بيدرو وخرج. كان يشعر أنه منهك، وكانت أمعاؤه مضطربة تماماً. فكر أن يتوقف ليأكل شطيرة في مقهى الزاوية، لكنه بدلاً من الشطيرة طلب كأس شراب ليمون. ثم ركب

سيارة أجرة، وطلب إيصاله حتى الكاتدرائية. دخل بيته بحذر، وهو يشعر بالخوف من وجود أحد بانتظاره. ولكن، لم يكن في بيته، سوى الصمت الكبير. توجه إلى غرفة النوم، وألقى نظرة على الملاءة التي تغطي جثة مونتيرو روسي، ثم تناول حقيبة صغيرة، وضع فيها الأشياء الضرورية جداً فقط، ومِلَفٌ مقالات التأبين. توجه إلى المكتبة وراح يقلّب جوازات سفر مونتيرو روسي. أخيراً وجد واحداً يمكن أن يلائمه. كان جوازَ سفرٍ فرنسي جميل، صُنِع بمنتهى الإتقان، وكانت الصورة صورة رجل سمين، له هالتان حول عينيه، كما كان العمر مناسباً. كان يدعى، بودان، فرانسوا بودان. بدا الاسم جميلاً لبيريرا. حشره في الحقيبة وأخذ صورة زوجته. قال لها: سآخذك معي، من الأفضل أن تأتي معي. وضع وجهها للأعلى، لكي تتنفس جيداً. ثم ألقى نظرة حوله ونظر مستطلعاً إلى ساعته.

يجدر به الإسراع، فجريدة الـ *لِشبَوَا* تصدر خلال ساعات ولم يكن هناك وقت ليضيعه، كما ادّعى بيريرا.

25 آب، 1993





لمن، وفي أية ظروف يروي بيريرا أحداث ذلك الشهر المصيري من حياته، الشهر الذي تدخّل القدر فيه، فأثر على مجرى الأحداث في آب من عام 1938 ؟ لم تُقدم إجابة على هذا السؤال، بل تُركت لافتراضات القارىء. غير أن بيريرا شاهدٌ دقيق متمسك بدقتِهِ بعناد، ويروي، كمن يقدم إفادة، لحظة تراجيدية من حياته ومن التاريخ الأوروبي.

على خلفيةٍ من الحكم السالازاري في البرتغال، من الفاشية في إيطاليا، ومن الحرب الأهلية في إسبانيا، تتضح لنا قصة وعي صحفي عتيق وعازب.

لقيت هذه الشهادة الروائية استقبالاً حماسياً في إيطاليا سواء من قِبَل الصحافة أو من قِبَل الجمهور.

كما حصلت عام 1995 على جائزة جان مونّيه للأعمال الأوروبية.